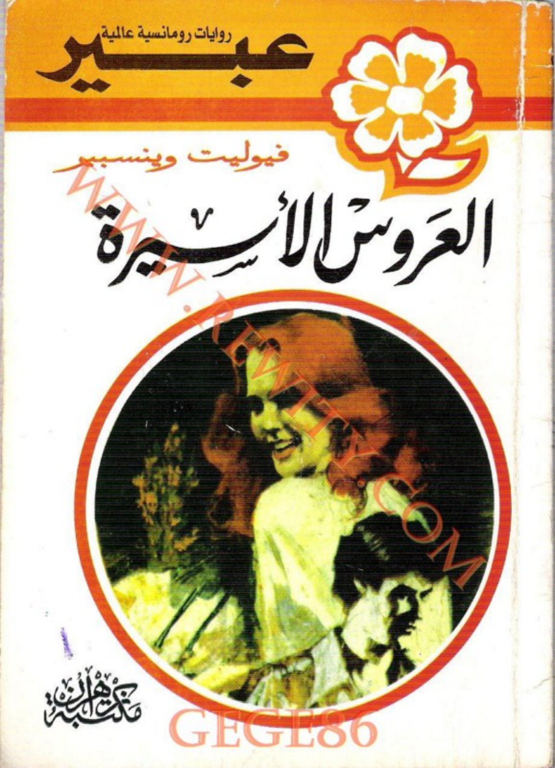
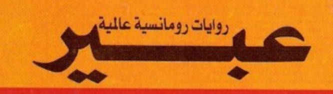

روايات رومانسية عالمية
عبير
فيوليت وينسبير
العروس الأسيرة
٧
مكتبة مدبولي
WWW.REWITY.COM
GEGE86



العروس الأسيرة

دائما يرتبط الحب بالجمال، دائما يكون العاشق شبيهـا بادونيس والعاشقة شقيقة عشتار . الا ان هذه القاعدة، ككل قاعدة لها شواذها ، ورافينا التي احبت رودري الجميل ما لبثت ان وجدت نفسها حيال رجل محروق الوجه واليدين ، يطارده ماضيه كالظل ، وفي ارجاء قصره المنيع في سردينيا وقعت اسيرة ذلك الماضي وتلك «المحروق» ... فهل تبقى هناك وهل يطل الورد من غابة الشوك ؟

١ ـ مفاجأة في العرس

وضع العريس يده فوق العروس وراحت اليدان تقطعان كعكة الزفاف بين هتافات التهنئة ، ورنين الكؤوس ، وجاجاة ضحكات المدعوين .

سأل أحدهم العريس :

« حقا ما يتردد في وطنكم بأن الرجال يصفعون العروس في يوم زفافها حتى تعرف من هو السيد ؟ . »

ابتسم مارك دي كورزيو وقال :

« أنت تتكلم عن أهالي صقلية أما أنا فأحد أبناء سردينيا » .

وبينما كان مارك يجيب على أسئلة تدور كلها حول سردينيا، ناول أحد المدعوين العروس ظرفا صغيرا أصفر اللون وقال لها : « هذه الرسالة وصلت لتوها يا رافينا ، أتوقع أن تحمل في طياتها حظا سعيدا لك » .

وشاب ابتسامتها شيء من التوتر عندما فضت الرسالة وراحت تقرأ فحواها عندئذ ألقت نظرة سريعة على مارك وفي لمح البصر دستها في أحد قفازيها الحريريين ، وغمر الشحوب وجهها حتى بدت عيناها بلون الجواهر الخضراء .وأخيرا حان وقت الصعود الى الطابق العلوي لارتداء ملابس رحلة شهر العسل ، اعتذرت من احدى صديقاتها التي تقدمت تبغي مساعدتها في تغيير ملابسها وقالت لها :

« أنا ... أنا ... أريد أن أنفرد بنفسي » .

أسرعت تتخلص من ثوب الزفاف الذهبي الشاحب ، والشال المزين بشريط من شرائط ويلز . لم يستغرق التغيير وقتا طويلا ، وعندما ارتدت ملابس الخروج وقفت امام نافذة غرفتها وتأملت شجرة الدردار التي ارتفعت وسط الحديقة ، وحملها الحنين الى الماضي فرأت رودري وهو يتسلق الشجرة ويقبع بين أغصانها وكان يوما ما يبدو لها فارس أحلامها المغوار ، وفي يوم آخر يتلبسه الشيطان ويأخذ في مشاكستها . هكذا شبت هي ورودري سويا في ذلك البيت على حدود ويلز . كان الابن الوحيد للكولونيل كاروت برينين

(١) الوصي عليها لعدة سنوات ، وكثيرا ما كانت تعتبره فى منزلة والدها ، وتكن له أعظم الحب ومنذ ثمانية عشر شهرا استقال رودري من الجيش ، ورحل الى نيوسوث ويلز فى استراليا ليشتغل بالزراعة هناك .

وكانت ضربة قاسية نزلت على رأس جاردي الذى يعتز كثيرا بالشهرة التى أحرزها فى الخدمة العسكرية ولم تدهش رافينا مما أقدم عليه رودري الذى يعتبر سليل أسرة عسكرية وعريقة يواكب تاريخها تاريخ مقاطعة ويلز ، وكان لزاما على رودري أن ينخرط مثل أبيه فى السلك العسكري وكانت رافينا تعرف أن رودري برينين يتنازعه دائما القلق المسيطر على حياته تماما .

فبعدما تسلم وظيفته ، اختار أن يقوم بمهمة خاصة فى قبرص ، وكانت كبرياء جاردي لا تعرف الحدود ، اذ غضب عندما عرف أن أبنه سوف يمضي إجازته فى الخارج ولم يكد يرحل رودري الى قبرص حتى ترك الخدمة العسكرية . راحت رافينا تحدق عبر نافذة غرفة نومها ، ويبدو انها عاد تسمع مرة أخرى وقع حوافر حصان على الحصي الذى يكسو ساحة الحديقة ، وذكرها الوقع بيوم كانت تقف فى المكتبة حين سمعت وقع حوافز أعقبه وقع خطوات حذاء تعبر الشرفه التى تقع امام نوافذ المكتبة ، وتذكرت نوبة الفزع التى تمتلكها عندما رأت قوام مارك ديكورزيو يعتم زجاج النوافذ .حدق كل منهما فى الآخر عبر الزجاج ، ثم دلف الى المكتبة بلا دعوة وقال لها :

« مساء الخير يا أنسة برينين » .

وعندما إنحني لها إنحناءة قصيرة أحست بالتوتر الذى كانت تشعر به كلما قدم لتناول طعام الغداء فى رافنهول .

كان شريكا فى الاعمال التى يمارسها جاردي ، ولكن هذه كانت المرة الاولى التى التقيا فيها على إنفراد ، كان يعيش فى الخارج بمنأى عن الجميع ، ويعتبر أكبر سنا من جميع أصدقائها ، وتكتنفه هالة من الغموض .

كان معتدل القامة ومع ذلك يوحي بأنه شخص طيع عندما يهل عليها ، وكانت أسنانها تكز على شفتها السفلى بقسوة كلما وقع بصرها على الجانب الايسر من وجهه الذى لفحه سعير النار ، وكانت تغض بصرها عنه بسرعة وكأنما ترى فى وجهه صورة الشيطان وقد اقترنت بها صورة الملاك .

قال لها وهو يضغط على مخارج الكلمات :

« أرجو أن تكوني متمتعة بصحة جيدة يا رافينا » .

«أخشى ألا يكون باستطاعتك لقاء جاردي، فهو موجود الان بالخارج » .

قال : « ما جئت إلا لرؤيتك » .

نزلت كلماته كالصدمة المفاجئة وتفحصت وجهه المتعالى الذى يوحى بأنه كان ذات يوم يتسم بالوسامة ، أما الان فتبدو الصرامة القاسية في ملامحه واستطرد يقول : « جئت عن قصد في هذه الساعة لأنني أعرف أن وصيك سوف يكون خارج المنزل ، في هذا الأصيل يمارس لعبة البولنغ مع صديقه القديم فى الجيش ايوين كيرير أليس كذلك ؟ » .

« إنني لا أكاد أعرفك يا سنيور دي كورزيو ! ولا أظن أن هناك شيئا يمكننا أن نتبادل الحديث عنه » .

وواجهته بنظرات مستقيمة كاستقامة شعرها الأحمر الداكن ، وثابته كثبات عينيها الخضراوين . قال وعلى شفتيه ابتسامة ملتويه :

« ستعرفينني جيدا خلال لحظات » .

وأشار الى مقعدين عميقين فوقهما وسادتان صغيرتان من الجلد ، وقال :

« من فضلك دعينا نجلس ، وإلا ظننت أنك تودين الفرار مني » .

وتوترت أعصابها وكان يحدوها حافز قوى يدعوها أن تطلب منه مغادرة رافنهول فى الحال ، ولكنه إذ التقى بصره بعينيها ، أحست أنه يقرأ أفكارها ، فقالت له بحزم : « أستطيع أن أمنحك خمس دقائق ، إنني أعد الطعام وجاردي يحب أن يتناول عشاءه فى موعده » .

« من فضلك اجلسي يا سينيورينا » .

امتثلت لطلبه وجلس هو بدوره ، وتقاطعت ساقاه وسقط الضوء على حذائه الجلدى اللامع ، وكان سرواله وسترته من قماش التويد ، ويدل مظهرهما على حسن حياكتهما ولم يحمل معه سوطا مما يدل دلالة كافية على أنه يثق بنفسه فى قيادة الخيول ، والناس أيضا بلا سوط . وسألها :

« هل تسمحين لي بالتدخين ؟ » .

فأومأت بالايجاب وراقبته وهو يخرج سيكارا رفيعا وقصيرا من علبة جلدية، أشعله بعود ثقاب وكاد اللهب يقترب من أنامله قبل ان يلقى بالعود الى المدفأة التى كانت خاوية لأن فصل الصيف بدأ يزحف تدريجيا ويغزو الطقس البريطاني .

« أشعر دائما بالبرد عندما أجيء الى انكلترا ، فالشمس تشرق نادرا ،

نسبة اليها فى بلدي » .

« حقا يا سنيور ! » .

ونظرت اليه بأدب دون أن تحدوها أدنى رغبة فى أن تسأله من أين أتى ، وكانت تتمني أن يفضي بما لديه ثم يرحل ، فقد أزعجها قدومه . وقطع عليها وحدتها ، وتمنت أن يرحل بأسرع ما يمكن .

قال : « مهلا يا سنيورينا ، وتمالكى زمام أمرك ، واسألى نفسك لماذا قطعت عليك خلوتك فى عقر دارك ؟ » .

قالت بصوت بارد : « نحن غريبان وليس بيننا شيء مهم ولكن يبدو لي أنك تريد أن أصغي اليك » .

قال : « جئت أروي لك حكاية يا أنسة برينين » .

« أنا منصتة لك يا سنيور من فضلك إبدأ قصتك » .

« أنا أرمل ، زوجتى الصغيرة دوناتا ماتت بعدما ولدت ابننا ، فكرست كل حبى لابنى الصغير دريستى . كان طفلا نشيطا ، محبا ، حنونا ومنذ ثمانية عشر شهرا دهم سائق مخمور سيارتى حيث كان ينام دريستى فى المقعد المجاور لى ، وولى هاربا وترك سيارتى مقلوبة على ظهرها والنيران مشتعلة فيها » .

وضعت رافينا يدها على خدها ، وكأنها تتلقى صدمة عندما وقع بصرها على الندبة التى خلفتها النار على وجه مارك ، وواصل حديثه بخشونة :

« وقعت انا وابنى فى شرك داخل السيارة وبذلت جهودا مجنونة لكى أحطم النوافذ لأحمل ابنى بعيدا عنها ولكن .. يا إلهى لو ان المجرم توقف وساعدنى لكان فى وسع ابنى ان يعيش حتى اليوم » .

ولم تستطع رافينا أن تتحمل التفكير فى أن الطفل يموت بهذه الطريقة فقالت : « أوه ... لا ! » .

واستطرد مارك يقول :

« انفجر خزان البنزين وتطاير جسدى وهو يحترق ليسقط فى حقل مجاور ، فأسرع العمال لإطفاء النيران ، كانوا يعملون على مبعدة ، ولم يكن فى وسعهم الوصول الى العربة قبل انفجارها . كان السائق الطائش وحده هو الذى يستطيع أن يقدم لنا المساعدة . وأمضيت عدة أشهر فى المستشفى بعدها رحت أقتفي أثر الرجل ، وعن طريق الكراج الذى أجرى الاصلاحات لسيارته عرفت ان اسمه رودري برينين ، الضابط فى الجيش البريطانى والموفد فى مهمة

خاصة الى قبرص » .

وتألقت عينا مارك دي كورزيو بتأنيب مرير عندما استقرتا على وجه رافينا ، ثم كساهما بياض أشاع الشلل فى شفتيها .

قال : « ابن وصيك ، تسبب فى موت ابني » .

وكانت كلماته تملأ الغرفة ويشوبها الألم والغضب ، ثم استطرد يقول :

« دريستي كان فى الرابعة من عمره ، وهو أخر هدية حب قدمتها زوجتي لى . ابني كان وريثي فى أرضي ، وعقاري وكان سيحمل اسمي من بعدي ، وموضع التشريف من أهالي سردينيا لعدة سنوات . إن كلمة الشرف لها معناها لدى أهالي الجزيرة ، واعتقد أيضا أنها تعني شيئا لرجال من أمثال كولونيل كاروت برينين » .

صاحت قائلة :

« جاردي ؟ أنت تقصد أن تخبره بأن رودري كان مخمورا وهو يقود سيارته وأنه تسبب فى الاصطدام بسيارتك ؟ لا تستطيع أن تفعل ذلك ! » .

ونهضت واقفة على قدميها ، ثم أردفت قائلة :

« سوف تقتله ! » .

ونهض مارك واقفا بدوره وقال :

« من تقاليد بلدي ، أن أسرة الأثم لابد أن تدفع عوضا عن الخزى والعار وثمنا عن الاضرار التى لحقت بالمجنى عليه ، إننا نؤمن بأن أسرة الرجل الذى اقترف خطأ عليها أن تتلقى اللوم بصورة ما » .

قالت : « ولكننا نعيش فى انكلترا » .

لم تكن رافينا تؤمن بأن أى رجل مهما أوذي فى قلبه او جسده يمكن أن يوجه اللوم الى جندى عجوز قديم بسبب خطأ ارتكبه ابنه . وأردفت تقول :

« إننا ... إننا نحاول أن نغفر .. يا سنيور . إننا لا نسأل أحدا أن يدفع ثمنا لخطأ ارتكبه » .

« أنا من سردينيا ، وقد مكثت ثمانية عشر شهرا أسأل نفسى ، ما هو الثمن الذى يمكن لأحد أفراد أسرة هذا المنزل أن يدفعه ، واليوم وجدت الجواب على سؤالى » .

« أنت تهدف الى ايذاء جاردي » .

« ليس هذا ضروريا يا أنسة برينين » .

« و لكنك أشرت . . » .

وحدقت فى الرجل وتعلقت بالامل ، لكنها اصطدمت بنظراته العنيدة السوداء ، إذ أنه من سلالة رجال يتصفون بالكبرياء والعاطفة والجسارة .

قال مارك دي كورزيو عن عمد :

« جاردي فى غنى عن معرفة ان ابنه شخص جبان » .

« كيف .. ؟ » .

ودقت الساعة لتعلن عن سكون معذب ، وهى تنتظر منه ان يواصل حديثه ، ولكنه كان هادئا مما دفعها الى ان تراه فى صورة النمر المتحفز للانقضاض على فريسته . كان الصمت الذى ران عليها يحمل فى طياته إنذارا بالهجوم .

قال بهدوء : « سوف تتزوجين منى ، وستهبين لى ولدا ، بدلا من الولد الذى فقدته » .

ولم تصدق رافينا أذنيها ، وانعقد لسانها فلم تتكلم ، ولكن الكلمات تدفقت فجأة :

« لا يمكن ان تكون جادا » .

« لم أكن أكثر جدية كما هو الحال فى هذه المرة » .

« هذا جنون ! لا استطيع الزواج منك » .

قال وابتسامة ملتوية ترتسم على شفتيه :

« أنت تظنين أنك لا تستطيعين الزواج مني ، إن الحب وحده سوف يجبرك على الاقتران بي » .

قالت متسائلة : « الحب ؟ » .

وشعرت بتيار بارد يسرى فى جسمها وعندما تحركت كانت تنشد الهروب من نظرته ، ومن ندبته ، ومن عينيه وحاجبيه السوداوين ، ولكنه تقدم نحوها يعترض طريقها ، وتحت وطأة الخوف استخدمت سلاح الاحتقار وهى تقول له

« هل تتصور أنني أستطيع أن أحبك ؟ » .

قال ساخرا : « لا .. إن خيالى ليس بهذه القوة ، ولكنك تحبين جاردي و لن تقبلي إيذاءه او أن تكونى سببا فى حرمانه من الحب الذى يكنه لابنه » .

« أنت قاس يل سنيور دي كورزيو » .

« لم اعتد ان اكون قاسيا يا سينيورينا ولكن رجلا اسمه رودري برينين

جعلنى اكون قاسيا » .

وحدقت عيناه السوداوان فى عينيها ، تشع منهما القسوة ، وعدم الرحمة ، وحدثها قلبها بأن بيت برينين سيدفع الثمن لقاء الطريقة الاليمة التى فقد بها مارك ابنه الصغير . حاولت رافينا ان تتحدث اليه بتعقل مع ان نبضات قلبها كانت مضطربة فقالت له :

« ما الذى تجنيه منى يا سنيور لو انك تزوجت إمرأة لا تحبك ؟ وماذا يحدث لو اننى اخبرتك بأننى احب رجلا اخر ؟ » .

« هل تحبين رجلا أخر ؟ » .

قالت بتحد : « أن أحب رجلا أخر ، هذا شأنى » .

ونفض رماد سيكاره فى المدفأة وقال : « على العكس، باعتبارك زوجتى، من واجبك أن تنسى هذا الرجل الآخر» .

« هل تعنى أنك تجبرنى على الزواج منك ؟» .

وأحست فجأة بالاضطراب، والحيرة، ولم تستطع أن تخفى شعورها فبدا جليا فى نظراتها الخضراء.

قال مارك :

« خلال الأسابيع القليلة الماضية عرفت شيئا عنك يا أنسة برينين، وخاصة عن مدى حبك الشديد للكولونيل جاردى الذى يعد أبا بالنسبة اليك، والحب يعتبر شيئا جميلا أقدره فى المرأة، خاصة أننى من أهالى سردينيا، ولكننى أفضل أن يحل الولاء مكان الحب.»

فصاحت قائلة:

« جئت وأنت مستعد لأن تطأ بقدمك عنق أحدهم، وانه حان الوقت لأخضع لك لأنك تعرف أن جاردى تعرض لنوبة قلبية منذ فترة قصيرة وأن نوبة أخرى قد تودى بحياته.»

«بل تبين لى أن وصيك يعتبر شخصية جذابة، وصريحة، ولبقة فى الحديث، وسيكون من الألم أن يبدد مشاعر أبوته على ابن لا يتمتع بالجاذبية.»

أحست رافينا أنها تنزع الشفقة من قلبها نحو صاحب الوجه المشوه، فى الوقت الذى تشعر فيه بالألم نحو الطفل الذى مات فى الحريق .

قالت : « إنك تزيد الموقف مرارة.»

« هكذا نبنى أحلامنا. فمن المؤسف أن أحطم أحلامك لابنى فوقها أحلامى.»

وضاقت جفونه وهو يتطلع اليها، وتوترت بشرته السوداء فوق فكيه وهو يستطرد قائلا: « ستكون هناك تعويضات .. يا رافينا.»

شعرت اصابع صارمة تطبق حول رسغها ، ففتحت عينيها لتجد مارك دى كورزيو قد اقترب منها، وشعرت بالكآبة عندما التقى بصرها بعينيه، وأجفلت من ندبته، ورأت النيران تتصاعد من خياشيمه والرغبة الشديدة تتراقص على فمه، وكانت رافينا قد عاشت حياتها لا تشعر باى خوف، تتمتع بالمراوغة التى تسحر بعضهم وتشيع الاضطراب عند البعض الآخر، ولكنها الآن تقع تحت رحمة حبها لوصيها جاردى، وهى عزلاء من أى سلاح.

قال : « سأطلب من الكولونيل برينين الموافقة على زواجى منك، وأنت بدورك تزعمين انك ترغبين فى هذا الزواج كما أرغب فيه أنا.»

وأحنى رأسه وقبل يدها الباردة المضطربه ، وأحست بأطرافها تجمدت عندما سمعته يتمتم :

« أنت تريدين سراويل تشبه سراويل صبي ، ويجب ان تفهمى اننى اريدك إمرأة » .

وتحول عنها ، وتناول وردة من الزهرية الموضوعة على المنضدة وثبتها فى عروة سترته وقال لها :

« أراك مثل الزهور ، وفى سردينيا تنمو الزهور فوق التلال قبل ان تشتد حرارة الشمس ، وبيتى يقع فوق ربوة كبيرة من الصخر على مبعدة من البحر »

« هل تحبين البحر يا سنيو رينيا ؟ » .

أجابت بحركة ألية : « عشت هنا معظم حياتى ، احب القرية التى تحيط برافنهول ، اننى انتمى اليها » .

« آه ، ولكن عندما تتزوج إمرأة فانها تتوقع ان تترك وراءها بيتها لتنضم الى زوجها ،أما بالنسبة الى الرجل الاخر الذى تحدثت عنه فهل يعيش فى هذه الناحية ؟ » .

قالت مغمضة العينين : « أجل ، لا تتوقع منى ان اتخلى عن كل ما احب ، ارجوك يا سنيور » .

وعندئذ تطلعت اليه ، ورأت انه لن يتأثر بكلامها ولم يكن من طبيعتها

التذلل والتوسل فابتلعت توسلها وتعلقت بكبريائها وقالت :

« اذا اجبرتنى على ان افعل ذلك فإننى آعدك بأن اكرهك بكل قطرة من الدم السلتي (٢) الذى يجرى فى عروقى » .

قال مبتسما : « وانا ايضا يجرى فى عروقى دم سلتي يا رافينا ، كانت جدتى تنتمى الى شعب كورنوول ولهذا السبب دعيت مارك ، هل تعرفين اسطورة مارك الذى كان ملكا على كورنوول ! » .

حدقت رافينا فى عينيه وقالت :

« طبعا اعرفها ، زوجته احبت الفارس الذى اتى بها من ايرلندا وفضلته على ان تكون عروسا للرجل الذى لا يستطيع ان تحبه » .

والقى نظرة سريعة على النوافذ التى اسودت بالسحب المنذرة بهطول المطر او هبوب عاصفة الصيف .

قال : « للحب معان كثيرة يا سينيورينا ان الرجال فى صقلية يصفعون وجه عروسهم فى يوم زفافها ، اما نحن رجال سردينيا فندخر هذه الصفعة للمناسبة التى تستحقها . والآن اظن ان الوقت حان للعودة الى الفندق حيث اقيم ، انه فندق [الذئب والحمل] فى هذه القرية العتيقة ، وبالقرب منه تقع اصطبلات الخيل ، ولكونى احد ابناء سردينيا فقد ولدت على ظهر جواد .» .

رافقته حتى اجتاز ساحة الحديقة الى المكان حيث ترك الجواد وكان جوادا اسود اللون .واعتلى مارك ظهر الجواد بحنكة دلت على انه رجل خبير بركوب الخيل ثم قال لها : « ارجو ان تسألى الكولونيل برينين ان يتيح لى فرصة رؤيته ظهر الغد . ان من دواعى التقاليد الرسمية ان يسأل المرء والد الفتاة او وصيها موافقته على زواج ابنته . ستكونين انت موجودة هنا ايضا لتضعى خاتم الزفاف فى اصبعك » .

زمجرت العاصفة ، واندفع الجواد بفارسه تجاه ضوء الغسق ، ورفع الحارس يده ملوحا وهو يقول : « وداعا » . واثارت حوافر الجواد سكون العاصفة كما اثار الفارس ضربات قلبها .انتابها احساس بالقدر الذى انشب اظافره فى قلبها ، فقد رأت انها لا تستطيع ان تخبر جاردي بما فعله ابنه مارك دي كورزيو انها لا تستطيع إيذاءه ، او ان يتعرض لاحدى النوبات القلبية مرة ثانية لان الطبيب قال : « ان جاردي يشعر بقلق على ابنه رودري اطفالنا هم الحب والهلاك الذى يدمر حياتنا » .

وفكرت رافينا فى ابن مارك واحست ببرودة تمسك بتلابيب عظامها ، فان الميتة الرهيبة التى لقى بها الطفل مصرعه نغصت حياة ابيه لدرجة انه لم يعد يحس بأى شعور بالرحمة على الاقل نحو افراد عائلة برينين .

لابد ان يدفع برينين الثمن ، واختيرت هى بالذات لانها وحدها تستطيع ان تقدمه له وهذا الثمن هو طفل اخر ... ابن اخر . تراجعت رافينا عن النافذة وسارت الى منضدة الزينة ووقفت امامها فى ثوبها الاخضر يهزها التوتر وراحت تقرأ مرة ثانية البرقية التى تسلمتها فى غرفة الاستقبال على انها برقية تهنئة للعروس ، ولكن البرقية كانت فى الواقع موجهة الى وصيها ،فضتها وقرأت :

« الابن الضال يعود يا ابى . اصل بقطار الثالثة والنصف ، الحب لك ولرافينا » .

رودري فى طريقه الى البيت ! وسحقت رافينا البرقية فى قبضة يدها ، ورأت ان من واجبها ان تلتقى به قبل ان يصل الى البيت الذى تستعد لمغادرته هى ومارك لقضاء شهر العسل ، وعليها ان تحذره بألا يبوح بسره ، كما احتفظت به مطويا عن جاردي . عزيزى جاردي الذى قدم سيفه الى مارك لكى يقطع كعكة الزفاف ، وابتسمت عندما مر بخيالها انها ما تزوجت مارك دي كوزيو إلا لتنقذ رودري .سيعرف رودري ان الصبى الذى قتله بتهوره واستهتاره هو ابن مارك . كما ان وصول رودري لم يكن متوقعا من احد وقد يفضى بالحقيقة لأبيه .

انتزعت رافينا حقيبة يدها وتسللت من غرفتها وتناهت اليها اصوات الضحكات الصادرة من الردهة ومثل الشبح اتخذت سبيلها عبر طريق السلم الضيق الذى يقع عند نهاية الدهليز ، وقادها الى باب جانبى وفى استعجالها نسيت غضب زوجها عندما يكتشف اختفاء عروسه المفاجىء .

وعندما بلغت ساحة الحديقة كان الجو مشبعا بضباب خفيف ينذر بالمطر ، لم يرها احد حينما دلفت مسرعة الى الكراج لتستقل سيارتها وتقودها الى الطريق حتى بلغت ساحة محطة السكك الحديدية التى وجدتها مهجورة ، كما خيم صمت مطبق على المكان عندما سارت على الرصيف بدا القطار على مرمى البصر وهو يسعى عند احدى المنحنيات حتى بلغ المحطة الصغيرة ، وملأها بضجيجه وانفتحت الابواب وهرولت الاقدام تغادر القطار وظلت رافينا ساكتة فى مكانها حتى اقبل عليها شاب نحيل القامة اسمر اللون يحمل فى

يده حقيبة سفر من القماش ، ويرتدى سترة جلدية فوق كنزة احكمت فتحتها عند عنقه لتقيه برودة المطر . وضع رودري الحقيبة على الرصيف ، وحدق فى وجهها مدة طويلة ثم قال ضاحكا :

« رافينا لقد كبرت اصبحت كائنا كاملا ساحرة صغيرة . خضراء العينين مكثت رافينا صامتة ولم تعرف ما تفعله سوى التطلع اليه . وها هو يعود بعد افتراق استغرق عدة شهور ، ولم تستطع ان تصدق ان هذا الوجه المألوف لديها وهذا الصوت الذى تعرفه يخصان شخصا متهورا ومخمورا وهو يقود سيارته .وقف بعيدا عنها فالافضل له ان يأملها من بعيد . وتفحصها مليا ببصره وتأمل ثوبها الاخضر ثم قال لها :

« تبدو عليك الاناقة .. اين أبي ؟ » .

« رودري . تعال معى الى السيارة . لابد ان اتحدث اليك » .

واصطبغت عيناه بالقلق وسألها :

« هل أبي بخير ؟ هل هو مريض ثانية ؟ » .

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

« لا ، انه احسن حالا مما كان عليه فى الايام الماضية انه يعمل بعض الوقت فى وظيفة بإحدى الشركات فى منصب اداري كما انه عضو فى المجلس المحلى وانت يا رودي تبدو عليك الصحة «

لم تلاحظ رافينا عليه اية دلالة على انه يكابد اى شعور من تأنيب الضمير ومن الجلي ان مدة ثمانية عشر شهرا قضاها فى استراليا ساعدته على ان تمحو من ذاكرته ما حدث فى سردينيا .التقط حقيبته والتفت ذراعه حول وسطها وراح يقودها الى السيارة وقال لها :

« اشعر بأننى لائق صحيا ، اما انت فيبدو علي وجهك الشحوب . لم تعد عيناك تضحكان كعهدى بهما . هناك شيء خطأ أليس كذلك ؟ » .

ولم تجب على تساؤله ودلف الى السيارة وجلست وراءعجلة القيادة وعندما امسكت بها شعرت به يحملق فى يدها اليسرى ورأى خاتم الزواج والى جواره خاتم اخر من الزمرد الخالص يتألقان فى اصبعها وفجأة قال :

« رافينا » . واستدارت نحوه تقابل عينيه المصدومتين قائلة :

« ارسلت لك برقية اخبرك فيها بزواجى ولم يكن لدينا ادنى فكرة انك فى طريقك الى الوطن » .

« تزوجت ؟ » .

« هيا بنا ، وفى الطريق سوف اخبرك بكل شيء » .

كان المطر اشبه بالضباب يكتنف الهواء ، وهى تقود السيارة خلال دروب المدينة الهادئة واخبرته بكل شيء فى صوت هاديء غير عاطفى وجلس الى جوارها مشدوها اشعل لفافة تبغ وسحب نفسين ثم سحقها والقى بها خارجا وكأنه يكابد مرارة الصدمة ثم قال لها :

« لا يمكنك احتمال الامر . سأخبر أبي بكل شيء » .

قالت ببرود : « وتقتله ؟ الا تظن انك ارتكبت ما فيه الكفاية ؟ مات طفل صغير » .

وكسا وجهه قناع من الالم والاسف المرير وهو يقول :

« رافينا انا ... ظننت انه يمكن نسيان كل شيء . إننى أخطو على درب الجبن مرة اخرى » .

« كل ما تفعله هو عدم إيذاء جاردي . هل تسمعنى يا رودري ؟ » .

« ولكن ما هو الثمن يا رافينا ؟ » .

« زواجى » .

واوقفت السيارة عند منحنى هادىء والتفتت تتطلع اليه واردفت قائلة :

« سأعتاد العيش فى ارض غريبة » .

« مع رجل لا تحبينه ؟ » .

« هل قلت اننى لا احبه ؟ » .

« انا اعرفك جيدا يا رافينا عيناك لا تجمدان بل تبعثان الدفء مادمت سعيدة كانت تتألقان يا رافينا فى الايام الخوالى » .

قاطعته قائلة : « لاداعى للحديث عن الايام الخوالى لن تخبر جاردي بأى شيء عما حدث فى سردينيا انتهى الامر ولن يعود الصبى الصغير الى الحياة »

« انت فتاة صغيرة حمقاء يا رافينا ! هذا الزواج يجب ان يفسخ قبل ان يبلغ مداه . يا الهى . هل تظنين انى ادعك تعيشين مع رجل اجبرك على الزواج منه ؟ هل تعتقدين ان أبي سوف يتخلى عنك لو عرف الحقيقة ؟ » .

قالت : « يجب الا يعرف يا رودري ! ان قلبه لن يتحمل الموقف ، اسأل دكتور شانى » .

سألها وقد لاح وجهه فى عينيها وكأن السنين تقدمت به :

« بهذه الدرجة من السوء ؟ » .

سألته : « هل تعتقد انك تستطيع الافلات من دون ان تنال عقابك ؟ مارك دي كورزيو يكابد ندوبه على وجهه وفى اغوار نفسه . هل تسمعنى يا رودري ؟ انه يكابد ندوبه » .

عندئذ انهار رودري برينين وبدأ ينتحب كالطفل الصغير فربتت على شعره الاسود وحاولت تهدئته وتمتمت قائلة :

« يجب ان تمكث فى فندق القرية حتى الغد . انت لا تستطيع ان تقابل جاردي فى هذه الحالة ومن الافضل ان تتوجه الى البيت بعد ان ارحل انا ومارك الى سردينيا هل تفهمني ؟ » .

هز رأسه . وعندما استعاد رباطة جأشه ثانية ادارت المحرك وقادت السيارة فى اتجاه الفندق ولكنها لم تجروء ان تترك رودري وحده كان اليأس مسيطرا عليه وفى امس الحاجة اليها فمكثت معه فى ردهة فندق [الذئب والحمل] وراحت تجاذبه اطراف الحديث . وقال رودري شاحب اللون :

« رافينا ، سيقتلك عندما تعودين اليه » .

وتطلعت الى الساعة المعلقة على الحائط وشعرت بأصابع باردة تعتصر قلبها ولاول مرة فكرت فى مارك وفى غضبه قالت :

« اجل ، يجب ان اعود ، يجب ان تعدنى يا رودري بأنك لن تفضى بشيء لأبيك . سيكون الامر فوق طاقته » .

وثبت عينيه على وجهها وقال : « وماذا عنك انت ؟ » .

وقف على قدميها وتناولت حقيبة يدها وشاحها وقالت :

« سأكون بخير كما يقول لى كل واحد اليوم . مارك ثرى وصاحب قرى وله مكانة مرموقة فى سردينيا وسوف اصبح سيدة بيته » .

وزمجر رودري قائلا : « كأن هذا كله هو ما يهمك . انت الفتاة التى اعرفها جيدا . انت ابعد عن كل انانية » .

قالت ضاحكة :

« لا تجعلنى ابدو فى صورة ملاك . وعلى فكرة جونيث كيريو مازالت عزباء وفاتنة كأغنية ويلز . تذكر كيف كنت دائما ميالا اليها . جاءت اليوم لتشهد حفل زفافى وأشارت قائلة اليس من العار الا يشهد رودري زفافك » .

وعندئذ هرعت رافينا تبتعد عنه وعن الردهة وعن الفندق لترتمى فى

احضان الليل والمطر . قادت سيارتها عائدة الى رافنهول ، عيناها الخضراوان متجمدتان كحجر الزمرد الذى يزين خاتمها ، وحدثت نفسها بان فى وسعها ان تتحمل اى شىء الان حتى غضب مارك .

دخلت المنزل لتجده خاويا من المدعوين ولم يبق شىء سوى الزهور مدلاة فى مزهرياتها وقد تناثرت تبلاتها على ارضية القاعة . وعندما اغلقت الباب الامامى وقع بصرها على شبح طويل يقف وسط الصالة الخافتة الضوء وسعى مارك اتيا من المكتبة وشعرت بوخزة من الخوف تسرى فى اعماقها وهو يتقدم نحوها فى سترته السوداء . سألها غاضبا وهو يهز كتفيها بيديه :

« اين كنت ؟ » .

ظلت صامتة وعندما اشتدت قبضة اصابعه على كتفيها ، ولم تتح له الفرصة لكى يدرك مخاوفها . وكان الهدوء الذى تكلم به اشبه بلسع السياط تنزل فوق جلدها وبعد هذا الصمت قال :

« هيا ، اخبرينى اين كنت ؟ يتفسرين لى سبب غيابك ، وسوف تنتحلين كذبة . كان علينا ان نخبر المدعوين بأن وعكة المت بك ، وان رحيلنا الى المطار قد تأجل . اننى اكره الخديعة يا رافينا » .

« هل حقا تكره الخديعة يا مارك ؟ » .

تطلعت اليه وتساءلت :

« اى اسم اخر يمكن ان يطلق الناس على زواجهما » .

واردفت تقول : « لاشك انك سمعت عن الاضطرابات العصبية التى تعترى العروس فى ليلة زفافها ، سيطرت بعضها على نفسى ووجدت انه من الخير لى ان انطلق بنفسى خارجا لفترة وجيزة » .

طوى طرف كم سترته وتطلع الى ساعة يده وقال :

« لكنك امضيت عدة ساعات ومن حقى ان اعرف اين امضيت هذه الفترة ؟ » .

قالت : « كنت اقوم بجولة فى سيارتى » .

كان ما تقوله نصف الحقيقة ولكنها لم تستطع ان تواجه نظرات عينيه وراحت تتطلع الى باب المكتبة المفتوح وسألته : « اين جاردي ؟ » .

« اخلد الى النوم وهو جالس فى مقعده متوتر الاعصاب قلقا عليك » .

ومست هذه الكلمات عصبا حساسا عندها ، وعندما شرعت السير تجاه

المكتبة امسك مارك برسغها وجذبها ثانية واوقفها فى مواجهته وسألها :

« هل امضيت كل هذا الوقت مع رجل ؟ » .

كان من المحتم ان يحدس جزءا من الحقيقة ولكنها لا تستطيع ان تخبره بالباقى . انها لا تقوى على ان تفضى له بعودة رودري الى انكلترا وانها اصطحبته فى سيارتها . سوف يدرك ان قاتل ابنه هو الرجل الذى تحب . وانها تورطت فى زواج لا يقوم على الحب من اجل حمايته انتابها شعور من اليأس البارد بعث الشجاعة فى اعماقها لان تتحداه فقالت له :

« هل ان الاوان يا زوجى لان تصفع عروسك ؟ هل رأيت انه من المزلة ان تختفى عروسك فى ليلة زفافها ، وانها لا تمتثل بالخضوع لك حتى يبدأ شهر العسل ؟ » .

حملق فى وجهها وشعرت بقبضة اصابعه تهشم عظامها وسألها معايرا :

« كم يلزمك من الوقت حتى تعرفينى حق المعرفة ؟ هل تتصورين حقا ان ما احبه فى المرأة هو الخضوع فقط وليس شيئا اخر ؟ » .

« يبدو انك قدمت اعذارا واهية للمدعوين عن غياب عروسك . وهذا ما دعاهم الى الدهشة » .

« أتوقع ان دهشتهم منا ستلازمهم لعدة اسابيع مقبلة . وسيتوهمون يا رافينا انك ما تزوجت منى الا من اجل مالى ، واين اجد المرأة التى يمكن ان تحب وجها مثل وجهى ؟ » .

التوت شفته بابتسامة شاحبة وامسك بذراعها الاخرى ومال عليها ولكنها جاهدت لكى تبتعد عن وجهه المشوه بالندبة . ولابد انه قرأ فى عينيها ما يخالجها ، فقد كانت لا تحس بأية رقة فى لمسته وهو يميلها فوق ذراعه حتى بدا شعرها وكأنه جناح من اللهب يجابه نسيج كمه الداكن .

تمتم قائلا : « انظرى مليا فى وجهى . يجب ان تعتادى عليه لاننى لا اريد ان يكون زواجنا مجرد ظل » .

تركها وسار بعيدا عنها تجاه السلم حيث استدار ينظر اليها وقال :

« نمضى الليلة فى رافنهول ونرحل غدا » .

وصمت قليلا ثم انفجر ضاحكا وبهدوء قال ساخرا :

« لا حاجة بك الى إغرائى بعينيك . ان شهر العسل سوف يبدأ فى سردينيا وليس هنا » .

وتراجعت اصابع يدها فى بطء عندما غاصت فحوى كلماته فى عقلها المتعب وقالت : « انت تقصد » .

قال « سنطير غدا جنوبا . الليلة ستقفين صامدة على قدميك ، فأنا لست شيطانا كما ابدو لك » .

ولاح الاجهاد والدموع فى عينيها وهى تتطلع اليه . لو ان لديها الشجاعة لان تفضى له بانها كانت بصحبة رودري ولكنها كانت تخشى ثورة غضبه . كما انها لا تثق فى رحمته واخيرا قالت له :

« انا ... انا ... يجب ان اذهب الى جاردي » .

الا انها لم تكد تبلغ باب المكتبة حتى استدارت لتلقى نظرة اخرى على مارك . وعندما اسرعت بالدخول الى المكتبة تململ وصيها فى مقعده وفتح عينيه وابتسم قائلا : « مارك كان غاضبا . لا تهربى ثانية يا عزيزتى ، انت إمرأة متزوجة الان . انت تعرفين ذلك » .

وضغطت وجنتها على كتفه وقالت : « أجل يا جاردي » .

« كنت دائما فتاة ذات بصيرة نافذة . أليس كذلك ؟ هل انت متأكدة من انك سعيدة مع هذا الرجل ؟ » .

وأدركت نبرة الحرص والشك فى صوت جاردي ، وفى الحال رأت انه من الضرورى ان تبعث الطمأنينة فى نفسه :

« وأى شيء اخر تنشده الفتاة عندما تتزوج من رجل ؟ » .

وابتسمت ابتسامة عريضة فى وجه الذى تحبه وتحترمه كثيرا . ثم قبلته فى وجنته . وحدثت نفسها بان غدا سيعود رودري الى البيت والى أبيه ، وسيكون فى ذلك عزاؤه عندما يجتمع شملهما !

* * *

٢ ـ من يجرح الحجر ؟

الدروب عبر الجبل ضيقة ، ملتوية حول نفسها ، وبدت السيارة وكأنها تحيد عن مسارها ، لتستقر فى أعماق البحر . وكانت الرياح تلطم زجاجها مما أضاف مزيدا من الاحساس بخطر داهم ، خاصة ان قيادة سيارة على حافة ارض غريبة ومتجهة الى غاية مجهولة كان فى نظر رافينا ضربا من الخيال .

جلست رافينا صامتة فى المقعد المجاور قرب زوجها واغمضت عينيها حتى لا ترى المنحنيات التى تتلوى عبر الطريق ، ويبدو ان عاصفة الصيف اقتفت اثرهما منذ غادرا بريطانيا ، وظلت ملازمة لهما طوال الطريق .

قال مارك بعد مضى ساعة من الصمت :

« أسف ان صورة الجزيرة التى افسدتها مياة الامطار هى اول منظر يقع عليه بصرك » .

وفتحت رافينا عينيها فوقع بصرها على الصورة الجانبية التى حدد معالمها ضوء العاصفة ، فشاهدت ألسنة النار وقد تركت بصماتها على صفحته وبعد صمت وجيز استطرد قائلا :

« يعتبر كاستيل ديل توري واحدا من أجمل معالم سردينيا عندما تلقى الشمس بأشعتها عليه ويعبق الهواء برائحة الليمون » .

كان يتحدث اليها كواحد من ممثلى شركات السياحة وهو يحاول ان يقنعها بأنها بحاجة الى الشمس فقط لكي تعشق مدينته . تساءلت هل يمكنها ان تحب هذا المكان النائي الذى يقع بعيدا عن وطنها وعن جاردي الذى استأجر مديرة بيت لترعى شؤونه .ذلت رافينا جهدها لكى تقاوم حنينها الى الوطن الذى راح يؤرق مضجعها وتطلعت الى يد مارك وهو يدير عجلة القيادة ، ثم نقلت بصرها الى اثار الندوب التى انحرفت غائرة فى جلده الاسمر

وكان مارك يركز انتباهه على الطريق عندما قال :

« لابد انك تشعرين الان بالاعياء ولكن بعد ميل او اكثر ستلوح

كازاتشيبريسو وستشاهدين اشجار السرو التى تعلو فى كبد السماء كالمشاعل وسط الامطار . ومن المحتمل جدا ان يصفو الجو غدا وتشرق الشمس وتحت الكازا تقع بساتين الليمون التى تقترب من البحر . والكروم المزروعة على جوانب التل .سألته بأدب :

« هل تمتلك حصة من الارض ؟ » .

وشعرت انه يبتسم باستياء وأجاب :

« مساحة جيدة ، انا معروف هنا باسم بارون الارض والفلاحون الذين يعملون فى ارضي هم احفاد الفلاحين الذين عملوا عبر السنين مع اجدادي . الاحداث لا تتغير سريعا في سردينيا لان اسلوب حياتنا ما هو الا صورة مستمرة للماضى » .

قالت واصابعها انعقدت على حقيبة يدها وتشبثت بالجلد :

« انت تقصد النظام الاقطاعى وانت نموذج للاقطاعيين . كلمتك هى القانون فى هذه الجبال والناس يحنون هاماتهم إجلالا لك » .

قال : « لا ينحنى اى سردينى لاحد ، انا احمل اللقب فقط ولكننى لا احصل على حصة من انتاج الارض اكثر مما يحصل الاشخاص الذين يفلحونها »

« وانت لك العسل ، أليس كذلك ؟ أم ان زوجتك وحدها سوف تستخلص العسل لك » .

ألقى مارك نظرة سريعة عليها وسألها : « عم تتحدثين ؟ » .

« فى الايام الغابرة كان الاقطاعيون فى مقاطعة ويلز يفوزون بنصيب الاسد فى كل شىء ويستخلصون العسل للحاكم ويقومون بتقديمه له فى قصره الذهبي » .

« إذن سوف تستخلصين العسل يا رافينا لتقديمه قربانا لسيد قصر السرو »

قالت ضاحكة: « أجل يا مارك سأقدم ثيابى وشعرى كما يفعل اى عضو سابينى فإننى لا املك سواهما » .

« سيناديك اهلى باسم بادروتشينا ، اى السيدة الصغيرة » .

واشاحت ببصرها عنه وتطلعت زائغة البصر عبر النافذة المجاورة لها وراح يتحدث اليها وهو يعتقد ان عروسه سعيدة وفى لهفة الى رؤيته بيتها الجديد .

ويبدو انه كان لايأبه كثيرا انها ستعانى الوحدة والخوف من وجودها فى

ارض غريبة مع رجل لا يحبها ولا يهتم بامرأة لا تكن له الحب .

كانت ترى ان الحب وحده كفيل بان يبعث فى المرء الشجاعة والرغبة فى رؤية الاشياء الجديدة ومقابلة حب استطلاع الناس ومواجهة عداوتهم .

كانت رافينا هى الزوجة الثانية التى تاتى الى قصر السرو وحدثتها غريزتها بان دوناتا كانت جذابة ومحبوبة من الجميع .وتتميز بالشعر الاسود والعينين الناعستين كفتيات الجنوب . استدارت العربة عند احدى منحنيات الطريق الجبلى ولاحت فى الافق اشجار السرو السامقة وبرجا منزل مارك اللذان يبرزان عاليا فوق الصخور المطلة على البحر .كان القصر يبدو كقلعة مظلمة كئيبة واشجار السرو فى هيئة حراس حوله ، ومضى البرق بصورة متقطعة عندما اوقف مارك السيارة ورأت رافينا درجات سلم حجرى وعددا من المصابيح الحديدية معلقة على الجدران التى تحيط بالباب الامامى المرتفع .

لفحت الريح خصلات شعرها وملابسها وهى تغادر السيارة وسارت حتى وقفت عند اولى درجات السلم ويبدو انه لم يكن مناسبا ان تصل الى هنا اثناء هبوب العاصفة .انضم اليها مارك ولاحظت قطرات المطر تعلو صفحة وجهه وبريقا يتلألأ فى عينيه .

قال لها : « أهلا فى بيتك الجديد » .

وقبل ان يلمسها هرعت تصعد درجات السلم لتقف تحت المدخل هربا من المطر ، كانت ترتجف اضطرابا وتحرص على الا تكشف عن اضطرابها ، قالت له وهو يقرع الباب :

« استطيع ان ادرك سبب عدم وجود مفتاح للباب فى حلقة مفاتيحك . هل الامور هنا فى الكازا تأخذ مظهر الفخامة الملكية ؟ » .

قال مارك وهو يتأمل الباب الكبير المثبت فى الجدران السميكة للبيت :

« البيوت تبنى هكذا عاليا حتى تتحمل موجات الرياح الشمالية العنيفة الباردة ، وموجات الرياح الشرقية الجافة المثقلة بالغبار . ولاشك ان الابراج اقيمت لتعطى القلاع مظهرا يشيع الرعب فى قلوب القراصنة الذين ينزلون فى الساحل تحتها .وقديما قالوا ان بيت الرجل هو قلعته التى توفر الحماية لعماله واهل بيته » .

وادركت من طريقة حديثه انه يجد سعادة وفخرا بالبيت القديم المتين البنيان الذى عاشت فيه اجيال متعاقبة من اسرته واحبته اشد الحب ولهذا

السبب كان يتوق الى انجاب ولد يكون وريثا لهذه القلعة .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب وسارت رافينا الى القاعة الكبرى حيث كان وميض البرق يكشف دروعا عربية واثاثا عتيقا ولوحات عائلية معلقة على الجدران المطلية باللون البرونزى المتوهج كقطع الخشب المشتعلة فى المدفأة .

صاحت رافينا قائلة : « نار ! » .

صيحة ارتياح من شخص يكابد البرد فى داخل جسده وخارجه ، واسرعت اتركع فوق السجادة الصوفية وتشابكت اصابع يديها طلبا للدفء وطقطقت الاخشاب المشتعلة التى كانت الظاهرة الوحيدة المرحة فى تلك القاعة الكبيرة ثم سمعت صوتا يتساءل :

« إذن .. هذه هى العروس ؟ » .

جاءت الكلمات فجأة من بين الظلال فالتفتت رافينا واجفة القلب ورأت شخصا يجلس فى مقعد بجوار المدفأة . كان للمقعد ظهر مرتفع والنقوش تزين مسانده وارجله ، وكان الشخص الذى يحتل المقعد امرأة عجوزا ترتدى ثوبا اسود بينما استراحت قدماها على مسند القدمين .

استقرت عيناها على رافينا . عينان سوداوان لا تشع الابتسامة فيهما راحتا تتأملان وجه الفتاة الشاحب وعينيها الخضراوان وشعرها الاحمر الذى بلله المطر . وتطلعت رافينا الى مارك ورأت سمات الكبرياء فى ملامحه وهو واقف الى جوار المدفأة وامتدت يده ليساعدها على النهوض فتوهج خاتمه . والقى الضوء على ندوب وجهه فأجفلت رافينا من لمس يده ونهضت واقفة على قدميها دون الاستعانة به ولم تحاول ان ترى القسوة التى ارتسمت على فمه فقال لها : « دعينى اقدم لك جدتى دونا جوكاستا ليوناردي . عادة ادعوها لانونا عندما اكون هادىء المزاج » .

تمتمت رافينا بالتحية التقليدية وكانت قد تمنت ان تاتقى بجدة مارك اذ اعتاد ان يتحدث عنها بحنان فهو سلتي وبينها وبينه شىء مشترك ولو ان دونا جوكاستا تتحدث الانكليزية بطلاقة ال انها لم تكن على مودة معها ، ولا شك انها تفكر هذه اللحظة فى عروس سردينيا التى اتى بها حفيدها الى البيت منذ ست سنوات مضت . وكان على مارك ان يبتسم وتألقت عيناه عندما طلب شرابا وقال : « انه من الواجب احتساء نخب لهذه المناسبة السعيدة » .

ونهضت دوناجوكاستا واقفة على قدميها فجلجل ثوبها الحريرى الاسود

مثل اوراق الشجر الجافة وقالت :

« هل تسمحان لى بالانصراف لاننى امضيت اليوم بطوله فى الاشراف على اعداد غرفكم وتنظيف البيت . انا متعبة يا ماركوس وسأتناول وجبة خفيفة فى غرفتى قبل النوم » .

قال بصوت يشوله غضب هادىء :

« ان تناول كأس معنا لن يستغرق وقتا طويلا » .

وتطلعت جدته نحوه ثم الى رافينا ولاحت ومضة من الحقد فى عينيها عندما استقرتا على رافينا وقالت :

« لم تتقدم السن بى كثيرا حتى انسى ان العشاق يحبون الانفراد وانا واثقة من ان عروسك تفضل ان تستحوذ عليك لنفسها » .

وسارت الجدة نحوه وربتت على خده المشوه بالندوب وجالت يدها المتألقة بالخاتم فوق صفحته لتشاهد رافينا ملامحه مرة اخرى ورأت الجدة فى عينيها نفورا من امس مارك لذلك قررت ان تتركها وحدها فى صحبته حتى تعلم نفسها ان تكون تحت رحمة طلباته . واحست رافينا بالبرودة تسرى فى اوصالها حتى وهى قريبة من دفء النار ، حين قالت السيدة العجوز لها :

« ليلة طيبة . ارجو ان تجدى غرفتك مريحة . حجرة العروس حجرة كبيرة ولكن ولا واحدة من عرائس اسرة كورزيو كانت تشكو منها » .

رافق مارك جدته حتى فسحة واسعة تقع عند اول درجات السلم بينما وقفت رافينا تتطلع الى النار ، الدخان المتصاعد من الخشب والسناج يشتعل من جديد ليتطاير عاليا مثل تطاير اليراع فى جنح الظلام . وتنبهت رافينا عندما شعرت بيدى مارك فوق كتفيها عندما انضم اليها وهى مستغرقة فى هذا الجو الصامت وقال لها :

« لا تتبرمى بما قالته لانونا انها سيدة عجوز من اهالى سردينيا وهى غاضبة لاننى لم اتخذ زوجة من بنات جنسى فأهالى سردينيا متعصبون لعشيرتهم ويتصفون بالكبرياء » .

قالت رافينا بصوت هادىء :

« يبدو لى يا مارك ان زواجك منى جلب الشقاء الى قلوب ثلاثة افراد ! »

. وادار وجهها لمواجهته ورحلت يده اليسرى من كتفها حتى استقرت على رسغها وسألها : « ما الذى يدعوك الى الظن باننى شقى ؟ بالتأكيد انت

تعرفين يا رافينا اننى اجدك فتاة جذابة بشعرك الاحمر وبشرتك البيضاء وعينيك البحريتين اما عن سحرك ... » .

وحدقت فى وجهه واحست كأن قناعا اسدل على وجهها فحال دون رويته فسألته : « ألا تجعل لمشاعرى حسابا لديك ؟ هل انا مجرد شيء بالنسبة اليك ؟ » .

انفرجت شفتاه وتلألأت اسنانه وسط وجهه الاسمر المشوه بالحريق واستدار عنها وهو يقول : « انت انسانة تدخل السرور الى القلب يا سيدتى ها هو ذا رنزيو أقبل لنا بالشراب سوف نحتسي نخبا وسنشعر بالدفء يسرى فى عروقنا »

وصب الشراب من قنينة فينيسية فى كأسين ثم ناولها إحداهما واحست ببرودة الكأس فى يدها اما الشراب فكان ذهبي اللون ورفع مارك كأسه وقال بلهجته الايطالية : « تحياتى » .

ونظرت رافينا اليه برزانة وقد انعقدت خصلات ملتوية عند سوالفها وقالت له ببرود : «لم اتعود بعد على لغة اهل سردينيا » .

قال : « سأعلمك كل شيء عن اهل سردينيا » .

كانت عيناه تحملان معنى عميقا وهو يقرب الكأس من شفتيه ثم اردف قائلا : « لا يمكن ان يتحقق التفاهم يا رافينا بدون نشوب معركة او اثنتين ، هذا ما يدفئني » .

جالت رافينا ببصرها على الجدران وتطلعت الى صور الاشخاص الغريبة عنها وابصرت الظلال تلقيها الشمعدنات وفسحة السلم الكبير المؤدى الى البهو ثم عادت لتقول له :

« ان ما يدفئنى حقا مختلف تمتما يا مارك لاننى لست ممثلة كتبت لها عواطفها لكى تؤديها ، انا هنا معك ومع هذا لا اشعر بأى عاطفة » .فسألها ساخرا : « ولا حتى الخوف » .

وتحولت ببصرها من سلم الغرف العليا الى غرفة العروس التى سوف تقاسمه النوم فيها وقالت له :

« هناك عواطف أقوى من الخوف يا مارك » .

احتسى نصف ما فى الكأس ثم قال :

« اظن ان العاطفة المخادعة اقوى من الخوف ولكن لامبالاتك تسعدنى الى ابعد حد » .

وفى لحظة ارادت ان تقول له انها تحس باللامبالاة نحوه ولكن هذا الشعور لم يكن صحيحى لانها كانت تحس بقوامه ولونه الاسمر وكبريائه كلها ممثلة فى وقفته امام المدفأة التى يضمها هذا البيت المطل على البحر بل انها كانت تحس بعظمته ...فقط عندما كان يشيح جانب وجهه المشوه بالندبة بعيدا عنها قال : « انتهى من احتساء كأسك حتى نتوجه الى غرفتنا ، انت فى حاجة الى انعاش جسمك بعد هذه الرحلة الطويلة وقبل ان نتناول طعام العشاء

واتخذا سبيلهما الى فسحة السلم ورأت وجود عدة غرف وممرات تؤدى الى اجزاء مختلفة من المنزل ولكن رافينا احست انها ليست سيدة القصر وشعرت بانها شخص غريب لا يشعر بالألفة فى بيته .

قال مارك وهما يرتقيان السلم متجهين الى البهو :

« جناحنا يقع فى برج الفارس » .

ثم استدار شمالا وسارا فى ممر يقود الى سلم اضيق واحست رافينا وهى تسير الى جواره بانه لم يقم مع دوناتا فى جناح الفارس وانما عاشا فى الجناح الاخر .فسألته : « ماذا تسمى البرج التوأم ؟ » .

« برج المادونا اطلقت عليه هذا الاسم احدى جداتى وهى فتاة حالمة من توسكانا وان كان اهل سردينيا لا يستسلمون لمثل هذه الخيالات الرومانتيكية لانهم اناس عمليون » .

كانت هناك نافذة تجاور سلم البرج وتسمح بدخول ومضات البرق التى كانت تهز اعصاب رافينا وربما كان البرق والظلال المتراقصة سببا فى ان تسرع بارتقاء الدرجات حتى كادت تقع على وجهها لكن مارك كان اسرع منها اذ مد يديه ليحفظ توازن جسمها وفجأة التفت ذراعاه حولها فقاومته رافينا وهى تحاول الفرار منه ... مرددة : « لا ... لا ... » .

لكنه امرها قائلا : « إهدأى تماسكى اليس من التقاليد المتبعة ان يحمل العريس عروسه ويعبر بها عتبة المنزل ؟ » .

وفى خطوة طويلة حملها وعبر بها عتبة غرفة النوم حيث كانت المصابيح مضاءة والحطب مشتعلا فى المدفأة والدفء يشيع فى ارجاء الغرفة واثاثها .

وظل مارك حاملا رافينا ووجهها على مبعدة من شفتيه اللتين لايبدو عليهما اية ملامح من الرحمة قال لها : « انت تنظرين الى وكأنك تزوجت شيطانا ».

قالت : « انا متعبة يا مارك وانت دائما تعذبنى » .

واسبلت جفونها كأنها لاترغب فى رؤية نظراته ومع ذلك كانت تحت بعينيه تتمليان شعرها وبياض بشرتها ولأول مرة فى حياتها أدركت كيف تبدو امام رجل ، وكيف جعلها تشعر بانها مسلوبة الارادة . ولما كان هذا الرجل هو مارك فانها كانت تود ان تنشب اظافرها فى جسمه حتى يشعر بالألم .

قالت له بوحشية : « كم اكرهك . واكره هذا المنزل ، وهذه الجزيرة التى تفخر بها ، احجار مبنية على احجار ، وانت لا تقل حجرا عنها » .

قال ساخرا : « مجرد كلمات ، هل تظنين ان مجرد كلمات تستطيع ان تجرحنى ؟ » .

قالت له : « وهل تظن ان شيئا يمكن ان يجرح حجرا إلا الحجر ، ولا يوجد شيء اكثر برودة من امرأة باردة » .

قال : « مجرد وعود من شفاة ناعمه »

.ثم اردف يقول : « اننى لم اتزوج منك من اجل كلمات ناعمة او نظرات ناعسة او خضوع مستأنس وانما تزوجت منك لاننى اريد طفلا بكل الروح والمرح الذى كان يتمتع به دريستي » .

واحست فى هذه اللحظة انه يتجرع الالم وان العذاب القاسى هزه حتى دفعه الى ان ينزلها من على ذراعيه ويبعدها عنه بقوة والقسوة تكسو وجهه المشوه بالندوب .

قال : « احضروا لك ماء الاستحمام » .

واشار الى اباريق نحاسية موضوعة على عتبة الحمام ومناشف دافئة وستارة شفافة اسدلت امام الحمام ، ثم اردف يقول :

« اسباب الراحة هنا ضئيلة الى حد ما ولكنك ستشعرين بالدفء قرب المدفأة ، دبرت لانونا وصيفة صغيرة لخدمتك لان اغلب الخدم هنا من الرجال وهذه الليلة يمكنك تدبيرها بنفسك » .

قالت رافينا بهدوء : « لا حاجة بى الى وصيفة . انت تعرف انه ليس لدينا اية واحدة فى رافنهول واننى اعتدت على ان ادبر امورى بنفسى » .

« انت الان فى كازاتشيبريسو والموقف متغير . سوف اخبر رنزيو بان يجلب فتاة صغيرة من فتيات القرية. انت البادروتشينا ولابد ان يكون لك وصيفة خاصة تهتم بملابسك وتصفف شعرك » .

قالت له وهى تنظر اليه بنظرات متحدية :

« ألا يعجبك شعرى كما تراه يا سيدي ؟ » .

« ستعدينه كما كان بالامس وهو تحت طرحة الزفاف وسوف ترتدين ثوبك المخملي الذى شاهدتك به حينما قدمت لتناول الطعام فى رافنهول اول مرة هل احضرت الثوب معك ؟ » .

وراودتها الرغبة فى ان تخبره بانها نسيت الثوب فى انكلترا وقبل ان تتفوه بكلمة سار مارك الى دولاب ملابسها وفتح ابوابه الكبيرة ورأت ثيابها منسقة على المشاجب وبدا لها الثوب المخملي الذى رفعه مارك من مكانه .واحست ان اصرار مارك على ارتداء هذا الثوب يعد تدخلا سافرا فى استقلالها الشخصى وارادت ان تنتزع الثوب من يديه وان يدعها وحدها . قالت له :

« حسنا لن ارتدى الثوب » .

وضع مارك الثوب على الفراش وقال لها :

« سأكون فى الغرفة المجاورة وسأدعك وحدك حتى تستعدى لحفل العشاء الذى اعد خصيصا لزفافنا » .

توارت وراء الستارة ونضت ثيابها عنها وراحت تستمتع بدفء الماء الساخن الذى هدأ اعصابها المضطربة وبعدما استحمت لفت جسمها فى منشفة كبيرة وغادرت الحمام وسارت حتى وقفت امام منضدة الزينة وشد انتباهها علبة من القطيفة مفتوحة تحتوى على قلادة زمرد مزينة بسلسلة مرصعة بالماس . سرت رعدة فى بدنها وخشيت ان يكون مارك دخل الغرفة اثناء استحمامها ليضع العلبة على منضدة الزينة وشاهدها من خلال الستارة الشفافة وكلما فكرت قليلا وجدت ان من حقه ان يأتى ويخرج من غرفة نومها كما يشاء وان يقدم لها حلية اعجابا ، ورأت ان القلادة تتمشى مع خاتمها وثوبها النخلي وشعرها الاحمر .

اشاحت بوجهها عن الهدية وارتدت ثيابها بيدين باردتين كالثلج وعقدت شعرها فى تصفيفة كالتاج وسمعت مارك مرة ومرتين يسير فى الغرفة المجاورة وثارت اعصابها عندما قرع الباب يستأذن فى الدخول فأذنت له ودخل وهو يرتدى ثياب السهرة وبدا فى قوامه الفارع رجلا بل سيدا للموقف .

قال : « آه ... أنت مستعدة ... تقريبا ! » .

وتطلع اليها من قمة رأسها الى اخمص قدميها ، فرأى بشرتها البيضاء تبرزها فتحة ثوبها المخملي وشعرها الاحمر الذى يزين رأسها وعينيها الخضراوين

واحست رافينا بإغماءة خفيفة عندما رأت ومضة اعجاب فى نظراته .

تقدم مارك والتقط القلادة من علبتها المخملية واستدار حتى وقف خلفها وقال : « دعينى اثبت القلادة حول عنقك » .

وتطلع الى المرأة وسلط بصره على نظراتها واردف يقول :

« تعجبك القلادة يا رافينا ، أليس كذلك ؟ » .

قالت بصوت بارد : « انها رائعة للغاية انها جزء من ميراث العائلة وانا اخذته اليس كذلك ؟ » .

فقال لها : « انت اخذتيه لانى اعطيته لك . هناك قرط يتمشى معها ، ولكنك فى الوقت الحاضر صغيرة على رتدائه . أذناك صغيرتان وهما جميلتان فى حد ذاتهما ويجب الا نفسد جمالهما بأقراط ذهبية ثقيلة . انت فاتنة وكل عرائس اسرة دي كورزيو ترسم لهن صور ذاتية فى السنة الاولى من الزفاف وسوف استدعى الرسام ستيليو فابريزي ليرسم لك صوره » .

لم تجد رافينا اى جدوى فى المعارضة ولو قدر لها ان تعيش فى سردينيا لتمنت ان تفجر الصخور التى يقوم عليها القصر ، والبحر الذى يقع تحته ، وفى هذه اللحظة راودتها الرغبة فى ان تسبح ولكن خالجها شعور بالبكاء وهى تتقدم مارك وتخلف وراءها غرفة نوم الزفاف .

أعدت مائدة العشاء وصفت عليها أطباق لحم السمان والفاكهة وكئوس الشراب ، وفى وسطها وضعت الزهور وعلى ضوء الشموع أقبلت رافينا على تناول الطعام بشراهة ولم ترفض كأسا ثانية قدمها لها مارك بعثت الدفء فى جسدها وأصابت عقلها بخمول وكان ذلك مقبولا مع الغربة التى تحيط بها .

تحدث مارك اليها عن الجزيرة وتاريخها حتى تركا المائدة وتوجها للجلوس بالقرب من المدفأة وجلس مارك على أريكة كبيرة بينما راحت رافينا تصب له فنجان قهوة .

قال لها : « الامسيات بدأت تميل الى البرودة » .

ناولته فنجان القهوة وهى تتجنب لقاء نظراته وقالت له :

« أحب النار ، انها تجعل الغرفة تبدو فى صورة بهيجة » .

قال بالايطالية : « حسنا » .

وشعرت بنظراته تحدق فيها وهى تجلس على مقعد بمساند ، اللون الاحمر المتوهج يشابه لون الاريكة . سألها : « هل تبعث هذه الغرفة على البهجة ؟ »

وتطلعت حولها وشاهدت الشموع مازالت مشتعلة ورأت لوحة جص فى السقف تصور عاشقين من العصور الوسطى تشابكت ايديهما ، والحوريات ترقص مع ألهة الاغريق . كانت الغرفة تتسم بالوثنية ، مثل الرجل الذى يراقبها برأسه الاسود الذى اسنده على ظهر الاريكة الحمراء .

قالت : « لابد اننا نعيش فى قرن اخر غير هذا القرن كأن الزمن توقف هنا فى كازاتشيبريسو وان ايام الثأر والمبارزات وصيد الصقور مازالت تعيش بيننا » .

« هل ضايقك ذلك ؟ ربما تمتين بصلة لتلك الايام . لديك سمة العصور الوسطى التى قيل انها تعود تحيا على بعض الوجوه . انها سمة من الحزن والكأبة » .

سألته : « هل لى ان ابتسم يا مارك ؟ » .

وبينما كانت رافينا تسأله التقت بعينيه الحالكتين فى السواد . كان وثنيا حتى بات لا يكترث بمشاعر عروسه . نزعة الثأر بدأت تموج فى اعماقه ولن يسلم شرفه حتى يدفع برينين ثمن موت دريستى ويطفىء لهيب الألم الذى يحترق قلبه . وتحولت نظراتها الى النار واللهب الذى راح يسرى فى اطراف الحطب وفكرت ان تهرب من مارك ، كان فى متناول يدها اذ كتب لها رودري ذات مرة رسالة بعث بها من استراليا متوسلا الها والى ابيها ان يلحقا به هناك لأنه اصبح يفتقدهما كثيرا ولكن نيوسوث ويلز كانت تبدو لها نهاية العالم وام الرحلة منهكة لجاردي .

سألها مارك : « هل انت قلقة على جاردي ؟ » .

انتابها توتر مفاجىء اليس غريبا ان مارك يقرأ افكارها .

أجابت بصوت يشوبه الالم : « أنا .. أنا افتقده » .

« هذا شىء طبيعى » .

« أوه ... مارك » .

وأحست كأن سكينا يغوص فى قلبها وأردفت تقول :

« هل تهمك مشاعري ، وهل يقلقك أننى أشعر بالآسى لبعادي عنه . إن عزائي الوحيد هو وجود رودري معه » .

وخيم صمت مطبق عقب أن تفوهت بكلماتها ، وتطلعت الى مارك ورأت فى عينيه تطاير الشرر ، فقال :

« اذن رودري برينين موجود فى رافنهول . إنه برينين الذى توجهت إليه

لمقابلته عقب زواجنا مباشرة . وكان يجب عليك رؤيته ! كان من المحتم عليك تحذيره لكي يكون بعيدا عن طريقي » .

قالت بيأس : « أجل ، أرسل برقية وكان لزاما علي أن أراه . كنت خائفة للغاية » .

سألها : « خائفة على عنقه الثمين ؟ » .

كانت عيناه تتألقان بوميض يجذبها إليهما ويغرقها في بحرهما ، فقفزت واقفة على قدميها ، وفي قفزتها اقتربت حافة ثوبها من لهيب النار وتعلق لسان من ألسنة النار بالحافة ، وعندما أدركت الخطر الداهم ، أطلقت صرخة ووجدت الماء ينسكب من دورق زجاجي وأحست بيدين تمسكان بها وترفعانها بعيدا عن النار .

قال مارك : « أيتها الحمقاء الصغيرة ! » .

ولاح امتقاع لون وجهه تحت جلده المحترق ، فبدت الندبات جلية واضحة ، وأردف يقول : « هل أعماك رودري برينين حتى أصبحت لا ترين شيئا أبدا

وراحت يداه تعالجان الكدمات التى لحقت بها ، وكانت تنورة ثوبها المخملي بللها الماء ، وأصبح غير صالح للارتداء . والرعب اللذين اجتاحاها حتى أنها لم تعد ترى سوى الجانب المحترق من وجهه ، والجحيم الذي ضاقت به ذرعا ، قالت معارضج لا مدافعة : « لا » .

وكانت صرخة أطلقتها ضد الآلم الذي قتل شعور الرقة فيه ، وكل اتزان في نفسه ، وتركها ترحل عنه ، وأدار وجهه بعيدا عنها وقال لها :

« خير لك أن تتوجهي الى الدور العلوي ، لتستبدلي ملابسك المبتلة ، وسألحق بك بعد فترة » .

تركته واتخذت سبيلها عبر الصالة ، وارتقت الدرجات ، وارتجفت بردا عندما لمست أصابعها ثوبها المبتل الذي شوهه الحريق . فلن يكون في وسع مارك أن يدع الرسام يمسك فرشاته ليرسمها وهى مرتدية هذا الثوب المشوه ، إنه سيجف حقا ... ولكن الحروق أفسدته . وشعرت برتياح حينما وصلت غرفتها في البرج ، وخلعت الثوب . وكانت أغطية الفراش مطوية ، وعليها ملابس النوم ، فارتدت ثيابها على ضوء المصباح ، والنار المشتعلة في المدفأة ، ثم جلست فوق مقعد مستدير وراحت تتأمل الوهج الأخير للنار .

كانت هذه ليلة زفافها .. ولا جدوى أن تسأل مارك إمهالها حتى تعتاد

عليه ، وعلى بيته ، أجفلت عندما سمعته يدخل الغرفة المجاورة . مع مرور الثواني ازداد .قلقها ، وراحت تعبث بخاتم زواجها الذهبي الذي أحست به ثقيلا في أصبعها ، وسمعت سقوط مفتاح على المنضدة ، وحرير السرير الذي نم عن جلوس مارك على حافته ليخلع حذاءه .

لم تستطع رافينا أن تبارح مقعدها حينما فتح باب الغرفة المجاورة فجأة ووجدته ماثلا اما عينيها في روبه الحريري الأسود ، وراحت تحدق فيه بعينيها الواسعتين وقد استحال وجهها الى صفرة أشبه بصفرة ثوبها .

قال لها بينما كان شعرها الأحمر ينسدل مسترخيا على كتفيها :

« يجب ألا تجلسي هكذا ، فالنار ذوت تقريبا . اقفزي الى فراشك » .

ولكن رافينا لم تستطع التحرك من مكانها ، وبدت الغرفة يثقلها ظله حينما أقبل عليها ، ورفعها من فوق المقعد ، وحملها الى السرير ووضعها على الفراش واقترب بوجهه منها ، ورأت الغضب مازال يتطاير من عينيه .

أصبح يعرف الآن أنها كانت بصحبة رودري حينما اختفت من قاعة الاستقبال يوم زفافها ، وإنه ان يغفر لها ما فعلته .قال لها وهو يجدل خصلات شعرها الأحمر حول عنقها : « أيتها الساحرة الصغيرة » .

انتابتها رجفة لم تستطع السيطرة عليها ، لأن رودري وحده كان دائما يناديها بعبارة الساحرة الصغيرة ، فأغمضت عينيها حتى لا ترى وجه مارك المعذب في ضوء المصباح . قالت له صائحة :

« أطفىء المصباح .. أطفىء المصباح ! » .

وخيم الصمت .. وسمعت صوت فرقعة . ولم يكن صوت إطفاء المصباح ، وانما كان صوت مزلاج الباب الذي أغلقه مارك بعد مغادرته غرفة النوم ، اذ تركها وحدها ، بينما كانت خصلة الشعر مازالت مجدولة حول عنقها والدموع تنهمر على وجنتيها .

* * *

٣ ـ رجل لا كالرجال

أخيرا نامت رافينا بعد ليلة حالكة وسهاد طويل . وعندما استيقظت في الصباح كانت الشمس تتسلل الى غرفة نومها تحمل معها الدفء وشذى الأعشاب ونسمة البحر . ظلت في فراش العرس تتأمل الغرفة ، ووقع بصرها على المقعد المستدير قرب المدفأة ، فتذكرت أنها جلست عليه بانتظار مارك ، وحملها كالطفل في ذراعيه ، وربما لسلوكها الطفولي معه ، تركها ولم يلمسها . فنشجت بالبكاء ، ونامت وحدها في غرفة الزفاف .

غادرت الفراش لتجد دلوا نحاسيا مملوءا بالماء الدافىء ، واستمتعت بحمام أعاد الانتعاش اليها ، ثم فتحت خزانة ملابسها وأحست برغبة تحدوها أن تتمتع بالحرية والانطلاق خلال يومها ، فاختارت بلوزة ملونة وسروالا فضفاضا ، ومشطت شعرها وأرسلته على ظهرها ، ووضعت لمسة من أحمر الخدود لتخفي معالم شحوب وجهها الذي نجم عن التوتر الذي كابدته خلال أول ليلة أمضتها في كازاسبيريسو . وعندما اتخذت طريقها للخروج من الغرفة ، وشرعت تهبط درجات السلم الحلزوني للبرج ، شعرت بالجوع ينشب أظافره في معدتها . ولم تجد أية إشارة تنم عن وجود مارك ، افترضت أنه يقوم بجولة تفقدية على البساتين وحقول الكروم التي تحيط بالكازا . وبدأت رافينا تتساءل اذا كان البيت هجره أهله ، عندما رأت رينزيو يعبر الصالة في سترته البيضاء ، ثم قال لها بالايطالية وهو يحدق في سروالها الفضفاض :

« صباح الخير يا بادرونسيتا » .

قالت له بالانكليزية : « أحب أن أتناول طعام الافطار يا رينزيو » .

وكانت تعلم أنه يفهم الانكليزية لأن مارك أخبرها أثناء تناول طعام العشاء بأن رينزيو كان يعمل في فنادق أوروبا » .

قال : « البادرون لم يعد بعد من جولته الصباحية ، وعلى البادرونسيتا أن تنتظره لتنضم اليه في الشرفة المطلة على البحر حيث اعتاد تناول طعام افطاره»

بدت رغبة شفافة في نظراتها وهي تسأله :

« الشرفة المطلة على البحر ؟ انني لم أرها .. هل تقودني اليها ؟ » .

وانحنى رينزيو ، واخترقا الصالة ، ثم سارا في ممر ضيق ، وعبرا مدخلا يؤدي الى الشرفة التي امتلأت بأشعة الشمس ، والمفعمة بهواء البحر وكانت الشرفة تبرز من الأمام لتطل على البحر مباشرة ، ومحاطة بسياج من القضبان الحديدية تأمينا لسلامة الواقفين . وتمتم رينزيو قائلا :

« البادرونسيتا سوف تنتظر وصول طعام الافطار » .

قالت : « أجل » .

وسارت الى نهاية الشرفة ، مأخوذة بمنظر الجبال ، والأمواج تتكسر فوق الصخور التي تجمعت على الشاطىء كأنها أطلال قلاع محطمة وشاهدت النسور ترفرف فوق صفحة المياة ، أدهشها أن يحب مارك تناول طعام إفطاره في مثل هذا المكان . هذا الملك الذي يتمتع بمشاهدة هذه المناظر الطبيعية ، وسيد هذا البيت الكبير القائم على المعقل الصخري ... ها هنا ملأت المرارة فمه ، فقسا قلبه بعد موت ابنه دريسيي وخاصة أنه يملك كل هذه القرى .بلا ابن يرثها . وقفت رافينا عند سور الشرفة ، والريح تعبث بشعرها ، وعلى سماتها ملامح العروس الأسيرة ، وكانت تعلم أن مارك سوف ينضم اليها حالا ، فتوترت أعصابها من مقابلته بعد الموقف الدرامي الذي شاب فراقهما ليلة أمس ، وأنذرتها أعصابها بدنو وصوله قبل أن تسمع وقع خطواته فوق أرضية الشرفة

انتلأ الجو بشحنة كهربائية استطاعت أن تشعر بها وهي تسري في عمودها الفقري الذي تجمد عندما وقف وراءها وهو يقول :

« صباح الخير ، أظن أنه لم يستغرق منك وقت طويل حتى تعثري على وكري ، أخبريني كيف ترين الآن الكازا والبقاع المحيطة بها بعدما أشرقت عليها شمس الصباح » .

قالت : « أكثر وثنية مما كنت أتصور » .

وشعرت بضربات نبضها عندما تحولت لمواجهته ، ووجدته يتأمل الشمس وهي تسقط بأشعتها على شعرها ، وكانت تتوقع أن تلاقي منه برودا هادئا ومقاطعة مهذبة بعد ما حدث ليلة أمس ، ولكنه ابتسم ورفع حاجبا متعجبا للملاحظة التي أبدتها وسأل : « هل ترينه وكر قاطع طريق يحتفظ رهينة انتظارا لفدية يدفعها أهلك لانقاذك ؟ » .

وتناول يدها التي تتحلى أصابعها بخواتمه ، وأحنى رأسه الأسود ومست شفتاه يدها ، فاشتمت رائحة ثمار الليمون عالقة بثيابه ، كان يقوم بجولة في حقول الليمون التي نضجت وغدت معدة للعصر وتعبئة عصيرها في مصانع الموالح التي تقع على مبعدة من الجزيرة ، ذلك أن دي كورزيو ماركة مميزة على جميع المشروبات المماثلة . وتتمثل الماركة بصورة نمر جاثم فوق صخرة يلعق الماء من نهر متدفق .

سألها : « هل استمتعت بنوم عميق ؟ » .

وفي صوته نبرة سخرية . لم تستطع أن تتطلع الى نظراته وهي تجيب على سؤاله بأنها نامت نوما عميقا . قال : « حسنا » . وتحول عنها ، عندما ظهر رينزيو في الشرفة وهو يحمل صينية عليها ألوان من الطعام ، ويتبعه خادم صغير السن يحمل دورق القهوة . وراح الخادم الصغير ينظر الى شعر رافينا الذهبي ، لأنه إعتاد أن يرى فتيات كاسيل ديل توري بشعر حالك السواد ، واضطر رينزيو الى أن يزجره فانصرف خائفا وشعرت بأن الخادم المذعور بعث في أعماقها بمزيد من الغربة عن ذي قبل، وقام رينزيو بإعداد مقعد أمام المائدة جلست عليه رافينا فقال له مارك: « يمكننا أن ندبر أمر افطارنا بأنفسنا » .

قالت له : « يبدو سلوكك غريبا معهم » .

وراحت تراقبه وهو يصب لها القهوة ، ويقدم لها طبقا من حلوى التروفيل وشريحة من الخبز المقدد . واستطردت تقول :

« إنهم غرباء بالنسبة الي . إنك لا تتصور ماهية شعوري يا مارك نصف حالمة لا أكاد أتصور أن هذا المكان واقع حقيقي . وأن زواجنا تم فعلا » .

قال لها : « تناولي طعامك يا رافينا ، إن التروفيل مثل الحب ، يفقد شيئا من نكهته عندما يصبح باردا » .

وكانت رافينا تشعر دائما بقبضة تعتصر قلبها اذا ما بدأ يتحدث عن الحب . ماذا يقصد بالحب ؟ أن يمسك بها بين ذراعيه ، يمتلكها دون أن يشعر بأية حرارة مما كان يشعربه نحو دوناتا ... فتاة الجنوب التي فقدها كما فقد دريستي . كسرت رافينا الخبز ودهنته بالزبدة ووجدت التروفيل حلو المذاق واللحم اللذيذ ، وحاولت ألا تفكر في طعام الافطار الذي اعتادت أن تتناول في صحبة جاردي . وقريبا من جبال ويلز المعروفة ، ومن وراء نوافذ رافنهول .

سألته : « هل تتناول جدتك طعام الافطار في غرفتها ؟ » .

« أجل .. لانونا بدأت تشعر بسنها المتقدم ، وغالبا ما تمضي الليل تكابد الأرق فينتابها الاعياء عند الصباح ، وقد اعتادت وصيفتها بابتستا أن تقرأ لها اذا جافاها النوم . ستجدين القوة في شخصية الساردي فلا يلتبس عليك الأمر فتظنين أنهم يفتقدون الحنان . وحينما تعتاد لانونا عليك وتتقبل حقيقة كونك زوجتي ، ستكتشفين أنها أقل تهكما عما حدث حينما التقيت بها يوم مجيئك » .

لم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من سؤاله :

« هل هناك علاقة بين كون المرء سرديا وبين كلمة ساردونيك (٣) ؟ »

« هل تظنين أنني شخص متهكم مرير ؟ » .

قالت : « بالتأكيد أن زواجنا أكبر دليل على مرارتك » .

« إذن أنا شخص مرير .. وأنت تشعرين بأنك ضحية لمرارتي ! » .

« أعرف أنه شيء فظيع بالنسبة إاليك أن تجتاز هذا الشعور ، ولكنه دفعك الى أن تكون قاسيا ! وانه لقسوة منك يا مارك أن تتوقع أن يكون سلوكي ينم عن رغبة في أنني أريد أن أكون هنا ، وما المسألة الا مجرد وقت أعد فيه نفسي كزوجة للتكيف على حب زوجها » .

قال : « لا أطلب أن تمنحيني حبك » .

فسألته : « لكنني أسأل عن نفسي أنا .. وماذا أريد ؟ » .

« اذا كنت تريدين رودري برينين ، فأظن أنه خير لك أن تبقي معي » .

وكانت كلماته باترة كحد السكين التي كان يستخدمها في قطع شريحة بطيخ مفعمة بالعصير .

سألها : « هل تحبين أن تتناولي شريحة منها ؟ إن بطيخ الجزيرة حلو المذاق » .

هزت رأسها وقد تشبثت أصابعها بحافة المائدة عندما رأته يضيف السكر الى شريحة البطيخ ، وراح يلتهم الثمرة ، بهدوء يبعث على الجنون ورأت أن اهتمامه به كامرأة لا يزيد عن اهتمامه بشريحة البطيخ .

سألته : « هل تأذن لي بالانصراف ؟ » .

وأمسكت بمنشفتها وألقتها على جانب طبقها ، وشعرت بنظراته مسلطة عليها عندما تركت المائدة ، وتوجهت نحو جدار الشرفة ، ووقفت تحدق في الجبال التي لمستها أشعة الشمس الذهبية ، ولقي الجمال الوثني للمنظر صدى

لشعورها بالشقاء ، ورأت أن هذا المكان يجب الا يكون مضيئا ، وإنها يجب أن يكتنفه الظلام الدامس حتى يتلائم مع حالة اليأس التي تكابدها .

سألها مارك : « هل تذكرك جبالنا بويلز ؟ » .

« لا شيء هنا يذكرني بوطني » .

« أنت تحملين في نبرة صوتك برودة ويلز ! » .

قالت : « وفي قلبي أيضا .. يا مارك » .

واستدارت لتتخذ وضع المدافع ، ثم أردفت تقول :

« ألا يكفي أنك حصلت علي ، لا تطلب أن أحب سجنك » .

« يبدو لي كأنك تزمعين الثورة ضد الجزيرة .. وضدي أنا » .

نهض واقفا ، وسار نحوها مثل النمر المتحفز للوثوب ، وحينما دنا منها ، رأت بوضوح الندوب محفورة على يديه فتذرعت بالصبر لكي تتحمل لمساته حينما أدار ذقنها ، وأجبرها أن تنظر الى عينيه قائلا :

« هل تظنين أنني تزوجتك لمجرد شعوري بالمرارة فقط ؟ هناك شيء أكثر من هذا يا رافينا » .

قالت : « الرعبة » . وشاب كلمتها احساس بالكراهية له .

قال وعلى شفتيه ابتسامة متهكمة : « أجل .. بعض من هذا ، بالاضافة الى أنني اكتشفت أنك مثيرة ، مزيج من البراءة والخداع . أنت وحدك يا رافينا لديك القدرة أن تجعلي أعصابي تفلت مني أو أسيطر عليها بسرعة . لديك روح عالية وأنا لا أحب تحطيم أى روح عالية » .

« ولهذا السبب لا تحمل في يدك سوطا ، لأنك في غنى عنه ؟ » .

« الشخص الضعيف فقط يحتاج أن يمسك سوطا ليروض امرأة أو حصانا » .

« إذن أنت تنوي ترويضي ؟ » .

هز رأسه ، وراح يدفع خصلة من شعره الى الوراء بعيدا عن حاجبيه ثم قال : « لا .. عندما نمتطي سويا جوادينا ، ربما ستعثرين على جواب لسؤالك وعندما نكون سويا على صفحة الماء ، وفي خضم العاصفة ستعرفينني أكثر . لست أحب الأشياء التي تروض . إنني سردي ! أحب بربرية شمسنا في أوج الصيف وقوة الريح عندما تهب من الجبال ، ولسعات أشجار السرو ، ولطمات أمواج البحر ، وسقوط حبات الزيتون تحت أشجارها . أنا سردي يا عزيزتي !

إننا لا نقبل أية تسوية للأمور مذلة ، ولا نقبل ترويضا لإخضاع المرأة » .

وعندما نظرت اليه عرفت السبب الذي دفعه الى أن يتركها ليلة أمس فإن الخوف الذي تملكها ليلة أمس لم يجذبها اليه ، فالرجل يحب من المرأة أن تتحول دموعها الى ابتسامة ، وتشعره بأنها في حاجة اليه . فقالت فجأة :

« دعني أرحل يا مارك » .

وتطلع اليها بابتسامة لوت شفتيه ، وأبعد يديه عن يديها ، وأستند على سور الشرفة الذي يحول دون سقوط المرء الى أعماق البحر . واستطردت تقول:

« دعني أرحل الى وطني ، أعني حررني من هذا الزواج » .

« هنا وطنك » .

« يمكننا .. يمكننا أن نفسخ هذا الزواج .. يا مارك ... » .

وحول ببصره ليحدق في أمواج البحر الثائرة ، وبدا جانب وجهه المشوه مثل الحفر على وجه عملة برونزية ، وقال :

« تطلبين شيئا لا أستطيع أن أمنحك إياه . أطلبي ملابس .. حلي .. حديقة تزرعينها بالورد .. حصانا لنفسك وفتيات يسعدهن التعرف عليك . لا أبخل بأي شيء ، ولكن في حدود المعقول » .

«هل يعتبر فسخ الزواج شيئا بعيدا عن المعقول .. إننالم ..» .

قال مقاطعا حديثها : « سيحدث يا رافينا ، فقط إنني لم أستعد شيئا مما قلته لك يوم أن أتيت الى رافنهول ، وأخبرتك عن دريستي . سأمنحك كل شيء يمكن لرجل أن يقدمه لفتاة . فقط امنحيني طفلا منك أنت يا رافينا بكبريائك وعينيك الجميلتين وولائك لأسرة برينين » .

«الولاء ! الولاء ! . كانت المواج تردد الكلمة في عقل رافينا ، وطيور البحر تصرخ عاليا ، وكان مارك وحده يرددها وهي تشعر أمامها بالعجز يشل سكناتها .

قالت : « الطفل يولد من الحب .: كما ولد دريستي » .

نظر اليها بخشونة فبدت أكثر غورا عن ذي قبل وقال :

« لن نتحدث عن دريستي ، ولكني أريد أن أريك بعضا من ضيعتي ، الشمس حارة ، ومن الأفضل أن أعثر لك على قبعة » .

وعثر مارك على قبعة قش في كهفه وهو غرفة فيها كل أسباب الاسترخاء ، والهدوء . ثبتت رافينا القبعة فوق رأسها دون الاستعانة بمرأة وسوت شعرها

تحتها ، وجعلت حافتها تظلل عينيها .

« أنت لست مغرورة بمظهرك » .

« الغرور كالخوخ سهل الخدش ، وفي أي حال أنا لست فاتنة » .

قال مارك : « أنا سعيد بذلك . إن أي رجل يعيش في أعماقه شيطان الغيرة لا يستطيع أن يتحمل مغازلة أحد لزوجته . تعالي ، دعيني أريك حدائق الليمون » .

وفتح بابا يفضي الى الحدائق التي امتلأت بأشجارالليمون ، حيث راح عدد كبير من الرجال يتفحصون الثمار ، وتمهل مارك ليتحدث معهم وليقدم اليهم عروسه . وأدركت رافينا أنه يبغي بذلك أن يوطد أواصر زواجه فأصبحت في نظرهم امرأة البادرون وأي تفكير في فسخ الزواج يقلل من قدر سيدهم ومكانته عندهم . وتذكرت أنه قال لها في استعلاء وكبرياء :

« أنا سردي » .

وبدأت رافينا تدرك تماما أن الكبرياء والكرامة تعنيان الشيء الكثير لدى أهالي سردينيا ... سردينيا حيث تنمو أشجار الزيتون بين صخورها ، والشمس تغرق التراب بأشعتها ، وقوة الأرض تكسو وجوه ناسها ، ورائحة الأعشاب وأشجار السرو تملأ التلال التي انتشرت فوقها حدائق الزيتون .

كانت القرية تقع على قمة التل ، وأبواب المنازل والنوافذ ضيقة ، وسطوحها تميل في انحدار واحد ، والحوانيت أشبه بالكهوف تنبعث منها رائحة أكياس الحبوب والأعشاب وقامت رافينا بجولة في القرية فشاهدت الكنيسة العتيقة ورأت النافورة التي تتوسط الميدان ، وكانت النساء اعتدن تعبئة جرارهن منها ، حتى تمديد أنابيب الماء من الجبال الى البيوت . وأدركت رافينا أن مارك بذل جهده لتوصيل الماء الى بيوت القرية ، ولمحت بعض النسوة جالسات أمام الأبواب يعملن في مغازل صغيرة ، كل واحدة منهن تنحني برأسها للبادرون ، بينما تحدق في قوام رافينا النحيل وسروالها الفضفاض .

ورؤية هؤلاء النسوة ذكرتها بدونا جوكاستا التي كانت تأمل أن يتخذ مارك عروسا من بنات جنسه ، ولم تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تتطلع الى داخل البيوت فرأت الدجاج يمرح في الفناء ، والأثاث العاري من كل مخيم لأن الأطفال كانوا يتلقون العلم في مدرسة القرية ، وعندما مرا ببابها قال مارك : « المعلم السنيور لاندولفو يتناول أحيانا طعام الغذاء في الكازا » .

وفي هذه اللحظة خرجت طفلة من المدرسة تبحث عن شيء فقدته على الأرض ، وفجأة انحنى مارك ليلتقط منديلا سقط بالقرب من الباب ، وتحدث معها وهو يقدمه لها ، ولكنها ولت هاربة حين رأت وجهه المشوه ورأته رافينا يسحق المنديل في قبضة يده ، ثم وضعه على قمة عمود الباب وواصلا سيرهما . قالت رافينا بسرعة : « لا تأبه يا مارك » .

ولأول مرة أدركت مدى الجرح الذي أصابه عندما فرغت الطفلة من رؤيه الندبة الغائرة في وجهه ، وولت منه هاربة . ولمست ذراعه ولكنه سحبها بعيدا عنها ليس غضبا ، وانما كنوع من الشعور بالاستقلال .

قال : « ليست هذه هي المرة الاولي التي أرى فيها النظرة الخاصة في العيون . تعالي ، إن هذه الدرجات الضيقة ستقودنا الى الممر المؤدي الى الكازا » .

اشتدت حرارة الشمس ، ولمحت رافينا منظر البحر ، وودت لو تسأل مارك أن يتوجها الى الشاطيء ، فيرطبا أقدامهما في مياة البحر ، لكن صمته بعث القشعريرة في أوصالها ، وشعرت بالسعادة عندما بلغت أخيرا جدار فناء الكازا وأخبرها أن هناك بعض الأوراق تنتظره في مكتبه ويريد إنجازها ، ألقى نظرة على ساعة يده وقال :

« يمكنك تسلية نفسك بأي شيء ، أو ربما تحبين التحدث الى جدتي فهي في هذه الساعة تتناول قهوتها في صالونها ، وأظن أنك تشعرين بالجفاف في حلقك بعد رياضة المشي تحت أشعة الشمس » .

وأدركت رافينا أنها لابد أن تعقد صداقتها مع لانونا آن آجلا أو عاجلا ، فوافقت على اقتراحه بتناول فنجان من القهوة معها ، وقالت له وهو يسير نحو المكتبة : « هل تنوي احتساء قهوتك .. وحدك ؟ » .

فالتفت نحوها ، وهو يضع يده فوق مقبض باب مكتبه ، ثم قال لها :

« إن ما لا أبتغيه منك هو الشفقة » . وفتح الباب ودلف الى المكتبة وحده

نزعت رافينا قبعتها ، وسوت شعرها ، ودخلت الصالون وكانت دونا جوكاستا جالسة تحتسي قهوتها ، وتدخن سيكارا رفيعا ، ولم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من التطلع الى السيكارا وهي تقول :

« هل أستطيع الانضمام اليك ؟ » .

ألقت لانونا رماد السيكارا ، وهي تقول :

« يوجد فنجان اضافي لماركوس أين هو الآن ؟ » .

« لديه أعمال يريد انجازها في المكتبة » .

« كنت أظن أنك شغلته لتستمتعي برؤية القرية . تعالي واسكبي قهوتك ، لا تقفي هكذا ، نصف جسمك داخل الغرفة ونصفك الآخر خارجها » .

إجابت رافينا بلهجة من يدافع عن نفسه : « أرادني مارك أن أزور القلعة »
وسحبت العجوز نفسا من سيكارها بشكل ساخر وقالت :

« ألم يقل لك أيضا أن تحاولي مصادقتي ؟ » . ثم أضافت :

« أنت بحاجة الى ما هو أكثر من عينين خضراوين لذلك » .

وتحرك اندهاش عميق في داخل رافينا حينما تبين لها أنها ومارك على علاقة وطيدة وأنها لا تعلم كم هي جزء من مأساة مقتل دريستي وتشوه حفيدها .ارتجفت يد رافينا قليلا وهي تسكب القهوة وسرت حين جلست في الكرسي المريح لأن الأعصاب خانت قدميها . ولم تكن الدونا جوكاستا تقبلها لأنها ليست من الجزيرة فكم سيكون كرهها لها أعمق لو عرفت سبب اختيارها عروسا لمارك .

سألتها العجوز : « هل أعجبك شيء في بلدنا ؟ »

قالت رافينا وهي ترتشف القهوة :

« أنا اعتدت أن أكون بنت قرية ، ولذا استمتعت بالتجول في القرية ووجدتها مثيرة للغاية » .

قالت الجدة بتحامل : « أنت تتحدثين وكأنك تقومين بزيارة سريعة لها . يجب أن تعتبري كاسيل ديل توري من الآن فصاعدا بيتك . هنا ستعيشين حيث تسلط الشمس أشعتها على جدران الكازا ، والرياح الشرقية الحارة تهب ساخنة وجافة وتدفع الاعصاب الى التوتر ، وعندما يأتي الشتاء تهطل الأمطار ، فتتعرض الطرقات للمخاطر ولكنها لا تحول دون سفر مارك وحده ، فهو اعتاد على ألا يصحب زوجته معه في مثل هذه الأحوال الجوية ، حتى لا تصبح الكازا سيبريسو تنعي الوحدة عندما يرحل في رحلات عمل » .

قالت رافينا بيأس : « أنا .. أنا سوف أرحل معه . عندما يسافر الى بريطانيا سوف يأخذني معه . إن أهلي يعيشون هناك » .

« أهل سردينيا يؤمنون بأن مكان المرأة بيتها » .

« مارك لن يتوقع مني أن أخضع لهذه القاعدة » .

وسحبت دوناجوكاستا نفسا عميقا من سيكارها وقالت :

« وماذا تعرفين أنت عن مارك بعد بضعة أيام من زواجك منه ؟ أنا تعهدته بنفسي منذ وفاة أمه عند ولادته . ورأيته يشب حتى أصبح رجلا . هذا الرجل الذي لا تعرفينه .. الرجل الذي كان قبل الحادث ، تتهافت عليه كل فتيات القرية .وكان في وسعه أن يختار أجملهن .. ذات العطر الفواح .. والمزاج الحلو » .

وتطلعت البادرونا العجوز مليا في وجه رافينا ، ثم أشارت الى خزانة خشبية تستند الى الحائط ، وقالت لها : « إذهبي وإفتحي الدرج الثاني وستجدين في داخله إطارصور من الجلد أحضريه لي » .

وامتثلت رافينا لطلبها ، فتوجهت الى الخزانة ، وفتحت الدرج الثاني وشاهدت إطارا جلديا من النوع الذي يضم صورتين فأحضرته لدونا جو كا ستا التي قالت : « افتحيه ، وشاهدي الصور » .

وأطاعت رافينا بينما قلبها يخفق خفقات سريعة ، وكما توقعت كان الاطار يضم صورتين احداهما صورة لعروسين ، والأخرى صورة شخصية لمارك فتطلعت اليها ورأت وجه شاب نحيل شديد الجاذبية عيناه السوداوان تضحكان ويملاهما الفرح والرغبة في الحياة ، وفمه جسور ، ينعطف حادا مما يتوافق مع حاجبه الأيسر . كانت هذه هي ملامح صورته منذ ستة أعوام ، أما الصورة الأخرى لمارك فلم تكن معروفة لها . وهي صورة زواجه بفتاة مشرقة ترتدي طرحة تحيط بشعرها الأسود وعينيها المخملتين .وسألتها دونا جو كاستا :

« هل تعرفين أن زوجة حفيدي الأولى كانت بهذه الصورة الجميلة ولها لوحة زيتية في برج المادونا ، تصوري روعة جمالها حينما كانت هي ومارك في أوج سعادتهما . يجب أن تذهبي لمشاهدتها . دوناتا كانت حقا هدية من السماء لرجل مثل حفيدي . وعندما استعادتها السماء أخذت معها معظم قلبه . وعندما مات طفلهما أدرك مارك أنه لن يحب مرة أخرى ، بالرغم من أنه كان من المحتم عليه أن يعيش مرة ثانية » .

وأطفأت دوناجوكاستا سيكارها في مطفأة نحاسية ، وكانت طريقة إطفاء السيكار لها دلالتها الواضحة ، وكأنها تريد أن تؤكد لها بأن الحب لن يستطيع أن يندلع مرة أخرى في قلب مارك . قالت الجدة :

« من فضلك إرجعي إطار الصور الى الدرج ثانية . إنها ذكرى مؤلمة لمارك

، ولذلك أحتفظ به سرا » .

وأطاعتها رافينا طاعة عمياء ، ولكن الوجوه التي رأتها في الصور راحت تجول في أعماق عقلها ، ويطاردها شبح سعادتهما ، وعندما عادت وواجهت لانونا قالت لها : « أرجو أن نكون أصدقاء ، أما اذا أصررت على معاملتي كانسان غريب .. » .

قاطعتها الجدة قائلة بوضوح :

« أنت فعلا غريبة ، دخلت المنزل ليلة الأمس وكأنك أتيت ضد رغبتك ، هل كنت تزملين أن يعيش حفيدي معك وفي بريطانيا » .

وأطلقت الجدة ضحكة إذدراء ثم واصلت حديثها :

« أنت تزوجت من سردي ، وجذوره ضاربة في هذه الأرض وأرضه هي حياته . وتزوج ثانية مثلما يفعل عندما يزرع أرضه من جديد بعد موسم الحصاد ، إنه يريد ابنا له » .

وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحست بالعداوة في عيني الجدة التي راحت تتفحص قوامها النحيل ، وقالت لها :

« مارك أحمق . إن أي فتاة في الجزيرة تستطيع أت تمنحه نصف دستة أطفال ، إذ يبدو من تصرفاتك كأنك لم ترغبي يوما في أن يلمسك رجل » .

وكانت ملاحظة شديدة أبدتها دوناجوكاستا التي رأت جانبا من الحياة فأصبح في وسعها أن تتبين بوضوح نظرة العروس المدلهة بالحب ، وقد رأت من رافينا موقف المافعة متخذة مظهر الانسانة الأسيرة ، وكأن أفكارها وأشواقها تعيش على مبعدة أميال ، سألتها لانونا : « هل أنت شقية ؟ » .

بدأت رافينا تسير نحو الباب وهي تقول :

« كيف أكون سعيدة ، وأنت تقولين لي أنني أفتقد المزايا التي يجب أن تتوفر في الزوجة . لست محبوبة ، ولا يرحب أحد بوجودي ، ومع ذلك لا أستطيع أن أعد حقيبتي وأرحل في حرية من هذا البيت » .

وجذبت الباب تفتحه وأسرعت تهرب من صالونها وانزوت في كهف مارك راغبة ألا يعثر عليها أحد . كان موعد تناول طعام الغذاء قد حان ، وعثر عليها رينزيو ، ولكنها تمسكت بالصمت وهي تتناول الطعام مع مارك وجدته . وعندما غادرتهما دونا جوكاستا لتستمتع بالقيلولة ، علمت رافينا من زوجها أن حفل الزفاف قد أعده أهل الضيعة ، وسيقام هذه الليلة .وأشعل مارك

سيكارا وأستلقى على المقعد، ثم قال :

« هذا الحفل دائما يقام عندما يتخذ البادرون لنفسه زوجة . سوف تستمتعين به ، وسيرقص الشباب رقصة ايطاليا الشعبية ..الترنتيلة . وسترتدي الفتيات ثيابهن القومية ، وستنتخب فتاة منهن لتقدم لك هدية » .

وعضت رافينا شفتيها ، ورأت بعيني خيالها وجه دوناتا المشرق فقالت :

« ولكن يا مارك ، هذا معناه أنه لم يسبق لك الزواج من قبل » .

لاحت مظاهر القوة في عينه ، وعلى فكه وهو يقول :

« سيقام الحفل وعشيرتي في انتظاري . إنهم يعملون بجد واهتمام وعند حدوث مناسبة سعيدة يمرحون بحماس شديد ، وأنت يا سنيورا دي كورزيو ستشعرين بالسعادة وأنت مرتدية أجمل أثوابك » .قالت له :

« هل نسيت أنك ألقيت الماء البارد ليلة الأمس على أجمل ثيابي » .

قال : « أجل حتى أنقذك من الحتراق ، وأنا أعرف كيف يشعر المرء عندما يلسعه نار الحريق » .

قالت : « مارك ، إنني آسفة لأنني أبدو بلهاء في موقفي تجاه الحفل . لم أتوقع إقامته .. و.. » .

« والحديث الذي تبادلته مع لانونا ترك في نفسك شعورا بالاكتئاب » .

ومال بجسمه الى الأمام ، وتطلع مليا الى وجهها ، وكانت رافينا تجلس على وسادة ، وذراعاها حول ركبتيها ، فبدت صغيرة السن ، ووقورة . وأردف يسألها : « ماذا قالت لك جدتي ؟ هيا خبريني » .

« هي .. حسنا .. قالت أنك سوف تتركني في الكازا عندما تقوم برحلات عمل . لي الحق يا مارك .. » .

فقاطعها قائلا : « في أن تكوني بصحبتي .. أليس كذلك ؟ » .

« أن أرى جاردي عندما تذهب الى بريطانيا » .

قال مارك وهو يعود بظهره الى الوراء ويرفع يده ليدخن سيكارا :

« مفهوم ، ولكنني لن أذهب الى بريطانيا الا بعد فترة طويلة .رحلتي المقبلة ستكون الى روما » .

قالت : « مارك .. هل تدعني أذهب معك ؟ » .

ولم تكن رافينا تتصور أنها سوف تبقى في هذا المنزل الغريب المسكون بتلك الفتاة التي تضع طرحة فوق شعرها الأسود ، وصورتها المعلقة في برج

المادونا والتي رحب بها الجميع وأردفت رافينا قائلة :

« أعتدت أن أتجول بطريقتي الخاصة ، ولن أكون مصدر إزعاج ، وسأبتعد عن طريقك عندما تلتقي بالناس لتجري معهم محادثات العمل » .

ولاح لها أن وقتا طويلا انقضي قبل أن يقول لها متهكما :

« طبعا سأصحبك معي ، لأنني اذا تركتك هنا وحدك ربما تفكرين في الهروب ثانية » .

وتصاعد دخان سيكاره فاختلط بأشعة الشمس التي كانت تتدفق عبر النوافذ نصف المفتوحة ، وكان لون عينيه السوداوين عميقا ، وكان جانب وجهه غارقا في الظل ، فلم تجد الأمر هينا لأن تشكره على وعده لصحبتها معه في رحلته الى روما . إنه يريدها معه لتظل تحت بصره ، ولم تعد تثق في عدم ثورته اذا ما فكرت في الهروب مرة ثانية . سألته سريعا :

« هل زرت روما ؟ » .

قال : « أجل » .

ونزع بتفكيره الى الماضي ، وكأنما كان يتطلع الى الأماكن التي رآها ويحمل لها أجمل الذكريات ، ثم عاد الى الحاضر ليستطرد قائلا :

« قضيت شهر العسل هناك ! » .

* * *

٤ ـ الظبي والجزيرة

زادت ظلمة الليل باختفاء القمر . وازدادت النجوم تألقا وبهاء . وامتلأ المكان بشذى الزهور ورافينا واقفة وحيدة في الشرفة المطلة على البحر تستجمع شجاعتها لتبدو مرحة في الحفل ، فبعد قليل تتدفق جحافل الناس الى فناء الدار ، وتضاء المصابيح وتبدأ جوقة الموسيقى في العزف . ارتدت رافينا ثوبا رائعا ، لم تجرؤ على السؤال عن صاحبته وانما وجدته على فراشها في غرفة برج الفارس ، وزاد الثوب من تألق سحر عينيها ، وأبرز فتنة وجهها ، وانتظرت في عصبية لحظة يراها مارك ، وسمعت وقع خطواته الهادئة تعبر أرضية الشرفة حتى وقف بجوارها ، وأمسك برسغها وأدارها نحوه لينظر اليها ، ولم تتفوه بكلمة عندما راحت عيناه تتأملان مظهرها في ثوب الجزيرة .

قال : « كم أنت فاتنة ، ولكن أرجوك أن تبتسمي ، الثوب يخص جدتي ، وقد طرأت لي فكرة أنه يناسبك » .

وبدت الدهشة في نظرات رافينا وقالت :

« هل تقصد أن لانونا سمحت لي بارتدائه ؟ » .

تلألأت أسنانه وسط وجهه البرونزي وقال :

« ليست لانونا ... وانما أقصد جدتي السلتية ديلمزا التي كانت تتحلى بصليب وهي ترتدي هذا الثوب » .

حكت أصابعه عنقها وهو يثبت حوله السلسلة الذهبية التي تحمل الصليب المرصع باللآليء ، واستقر الصليب على صدرها ، ولمسته رافينا ، فأحست الدفء الذي بقي فيه من يد مارك . تمتمت قائلة :

« كم هو جميل صليب ديملزا . شكرا لك يا مارك لأنك سمحت لي بارتدائه هذه الليلة » .

« أنا أعطيته لك » .

« ولكن ... » .

ووضع مارك أصبعه فوق شفتيها ليمنعها من مواصلة الحديث وقال :

« لم يرتده أحد سوى ديملزا وقد قدمه لها جدي عندما جاءت الى هنا »
.وشعرت رافينا فجأة بالدموع تحرق ماقيها .

فقالت : « مارك ، أحيانا تبدو رحيما للغاية » .

وعرفت يداه طريقهما الى وسطها وقال لها : « ولكني في أغلب الأحيان أبدو قاسيا ، أليس كذلك ؟ كم أحب أن تقبليني يا رافينا » .

وقفت رافينا على أطراف أصابع قدميها وكانت تنتعل خفي ديملزا الأسودين ، وقد زينا بشرائط وردية ، ثم مست شفتاها خد مارك غير المشوه ، وفجأة شعرت به يتوتر فقد أدرك أنها لا تستطيع أن تحتمل لمس ندوبه ، لأن التفكير في لمسها كان يثير الرعب في قلبها . وأحكم قبضة يديه حول وسطها ، فمالت برأسها الى الوراء ، وزادت عيناها الخضراوان اتساعا ، عندما مال بوجهه نحو وجهها وقال لها :

« كان يجب أن يكون الحفل تنكريا ، مارأيك لو أنني غطيت وجهي ؟ »

انطلقت من بين شفتيها صرخة قائلة : « مارك ... »

ولكن قاطعها قائلا :

« وجهي يفزعك .. كما أفزع تلك الطفلة التي خرجت من المدرسة » .

« كفى ... » .

« أفزعك .. ولكنك ستتعلمين كيف تعيشين معه مثلي » .

وانسحب ، وقد ثبت ربطة عنقه ، وارتدي سترة سوداء ، وقميصا زبيبي اللون ، ثم قال : « تعالي ، من الأفضل أن نهبط لمقابلة الناس الذين وصلوا ، فالحفل أوشك على الإبتداء » .

وكان الفناء حاشدا بالناس رجالا ونساء ، يرتدون أفخر ثيابهم ، يحدوهم المرح والضحك ، وبدا حب الاستطلاع في عيونهم عندما ظهر مارك في الفناء بصحبة عروسه الشابة فصاحوا :

« مرحبا بك في منزلك يا بادرون ، جئنا للاحتفال بالزواج السعيد » .

وأقبل عدد كبير منهم لتحية رافينا ، البعض يضغط على يدها ، والبعض يقبلها وأحست أن ابتسامتها تجمدت على شفتيها إزاء الطريقة المتكلفة التي تنظر بها النسوة اليها ، وأدركت أنهن يقمن بمقارنتها بالعروس التي سبقتها ووقفت الى جوار مارك . كانت دوناتا واحدة منهن مشرقة ذات وشاح يكسو شعرها الأسود مثل لون بشرة مارك ، أما هي فشعرها أحمر اللون ، وبشرتها

شاحبة . شعرت رافينا بالتوتر وودت أن تبكي . وأحست بالمهانة من الصورة التي تعرض بها على الجميع ، ولكن سرعان ما زايلتها هذه المحنة عندما أقبل الخدم يحملون اللحم الذي تنبعث منه رائحة الشواء ، والخبز ، وأطباق المعكرونة ، والزيتون ، والجبن ، والطماطم ، والفواكه ، وقناني الشراب الأحمر والأبيض ، وملئت الكؤوس وشرب الجميع نخب البادرون وعروسه ، وهم يرددون قائلين :

« مبروك .. فلتبارككما السيدة العذراء » .

وأجبرت رافينا أن تجلس بجوار دوناجوكاستا ، وعدد من صديقاتها وانهلن عليها بالاسئلة العديدة ، وكانت لانونا تقوم بترجمة فحواها لرافينا التي أجابت عنها أفضل إجابة ، وكم كانت سعادتها عندما بدأت رقصة الترانتيلة .

لم تشاهد رافينا الرقصة من قبل ، وشعرت بعد لحظة بسحرها وخاصة بعدما بدأ الرجال يتسللون الى داخل الحلقة التي عقدها بعضهم ، وسرعة الموسيقى تسارع في وقعها ، وبدأت الفتيات في نداء أسماء الشبان الذين يعجبن بهم . وكانت فتاة فاتنة تقف بالقرب من رافينا عندما التقطت زهرة من شعرها ، وألقت بها الى راقص خبير في الرقصة ، فأمسك بالزهرة ووضعها بين أسنانه البيضاء ، وترددت ضحكات لم يسبق لرافينا أن سمعتها .كانت ضحكات أناس يشتغلون بجد واهتمام ويلعبون بحماسة شديدة وتجري في عروقهم حرارة الشمس الساخنة ، والريح العاتية وجمال الجزيرة المتوحش .

وعندما انتهت القصة بدأ الراقصون يرطبون حلوقهم باحتساء الشراب بينما كان عازف غيتار يشدو بأغنية عاطفية وكانت رافينا تراقب كل ما يجري فرأت مارك يتحدث الى بعض رجاله ... ربما كانوا هم هؤلاء الذين سارعوا الى إطفاء ألسنة الحريق التي كانت امتدت اليه . كانت رافينا تحاول أن تتوارى في الظلال ، بينما كان مارك يدور بنظراته بحثا عنها ، وكشف المصباح عن الصرامة التي ارتسمت على ملامح وجهه . قال له أحد الرجال بصوت عال :

« باردون ، يجب أن نذهب لصيد السمك عندما يحين الوقت .آه يجب أن نصطاد بالرمح حوتا رهيبا » .

قال رجل آخر ضاحكا : « الرجل صياد وعليه أن يجد فريسته » .

لطم الرجل الأول ظهر الرجل الآخر وقال :

« أنت تتكلم عن النساء ، وتقارن بين صيدهن وصيد السمك . إن صيد

النساء أفضل رياضة للرجال ، لأنه في الحقيقة ليس من السهل ترويضهن . ما قولك يا باردون في أن المرأة الأليفة أشبه بالمعكرونة الخالية من الصلصة » .

أجابه مارك وهو يبحث بعينيه عن رافينا :

« المرأة التي لا تتشاجر معها ثمنها يقل . إنها تحتل قلب الحياة .. وحيثما توجد الحياة فلابد من نشوب المعركة » .

ضحك الرجال وراحت عيونهم تتفحص النساء في ثيابهن الملونة ،وكانت هالة من الكبرياء والصراحة تحيط بهن من دون أدنى لمحة من خضوع في سلوكهن . وتقدمت فتاة فأزاحت الوشاح الذي يغطي رأس رافينا ومررت أصابعها فوق وجنتها وهي تتمتم : « سيدتي العاشقة » .

وكشف صوت الفتاة المرتعش عن المكان الذي اختبأت فيه رافينا ، فاضطرت هذه أن تتسلل من مخبئها وتقف في دائرة ضوء المصباح ، وفي الحال رآها مارك وعندما إقترب منها أحست أنفاسه تلفح عنقها . وكان طويلا أسمر اللون ، يحدق فيها بنظرة تنبيء الجميع بأنها ملك له .

سألها بصوت ساخر : « هل استمتعت بالحفل ؟ كما ترين الرجال يرقصون مع زوجاتهم وسيبدو الأمر غريبا لو أننا لم ننضم اليهم في رقصهم »

وجذبها الى حلبة الرقص وكانت الراقصة لا تعدو أن تكون خطوتين بسيطتين ولكن رافينا كانت تتعثر في رقصها ، وفجأة أطبقت أصابع مارك على وسطها وهمس في أذنها بقسوة : « هل تكرهين لمسة يدي كثيرا ؟ » .

وضغطت وجنته على وشاحها الذي يغطي شعرها ، وبدت همسته أمام الجميع أنه محب لها وله بها ، فأغمضت رافينا عينيها حتى لاترى المصابيح والمرح الذي ارتسم على وجهه وقالت :

« إنني أحاول يا مارك أن أبدو عروسا سعيدة في الحفل . إنها لاتكاد تكون غلطتي اذا لم يستطع قلبي مشاركتهم » .

وتوقفت الموسيقى عن العزف ، وحانت اللحظة التي يقدم فيها الناس للبادرونسيتا هدية الحظ السعيد هؤلاء الناس الذين توافدوا يحدوهم حب الاستطلاع لرؤية عروس البادرون ، ويشعرون بالشفقة نحو هذا الرجل الذي قاسى كثيرا من مأساته ، وهو الزن يعيد بناء حياته مع عروس جديدة شابة .

تجمع الناس حول العروسين ، وتقدمت فتاة تفوهت ببعض الكلمات الخجلة وقدمت لها هدية غير مألوفة وكانت الهدية ظبيا منقطا بعيون واسعة وسيقان

طويلة وكان دور رافينا أن تقوم على رعايته وتدليله . ربت مارك على أذني الظبي وقال مبتسما : « من أين حصلت عليه ؟ » .

تقدم أحد الفلاحين وانحنى أمام رافينا وقال :

« ابني الفلاح أتى به من رحلة بحرية كان يقوم بها ، سيدي البادرون زوجتك يبدو على وجهها تعبيرات ذات مغزى والظبي يجب أن يكون ملكا لها

هز حديثه مشاعر رافينا وقالت له :

« أشكرك أخبرهم يا مارك كم أنا ممتنة بهديتهم » .

مست يده كتفها وأحست بالدفء يسري خلال بلوزتها الحريرية

فقال لها : « إنه في وسعهم أن يشعروا بسرورك ... يا عزيزتي » .

قالت : « ألف شكر » .

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وقورة وكانت عيناها مخضلتين بالدموع بينما تشعان الشعور بالامتنان والخجل لانها استطاعت أن تعقد صداقتها مع أهل سردينيا الذين يتصفون بالطيبة . وكان الوقت يشير الى منتصف الليل عندما بدأت الجموع تستقل عرباتها أو تمتطي دوابها ، عائدة الى ديارها . وكانت تصيح وهي تودع العروسين قائلة : « وداعا ! ليلة طيبة ! » .

« حفلا سعيدا » .

وبدأ وقع الحوافر يخفت تدريجيا وهي تبتعد عن المنزل وأطفئت المصابيح واحدا تلو الآخر . ووجد البادرون وعروسه نفسيهما وحيدين في فناء الدار . واستند مارك الى شجرة سرو ، وراحت عيناه تلاحظان الطريقة التي يقبع بها الظبي على ذراع رافينا وكأنه طفل صغير فقال لها :

« يبهجك هذا الظبي الوليد ... أليس كذلك ؟ »

قالت : « لم أمتلك شيئا يبهجني مثل هذا الظبي ، وانني أفكر في اختيار اسم يناسبه وأفضل أن أطلق عليه اسم بامبو اذا لم يكن هذا الاسم شيئا » .

قال مارك بكسل : « يبدو الاسم غريبا . علينا أن نجد له مأوى في الاسطبل . هناك يمكن أن يعقد صداقة مع مهر يتيم » .

حملا الظبي ووضعاه الى جوار المهر الذي أجفل وصهل ، وأراد مارك أن يهديء من روعه ، فربت عليه بيده ، وسطع الضوء من مصباح معلق ، فكشف عن الندوب التي بدت واضحة على يديه . وتطلع اليها مارك فرآها تحدق في هذه العلامات الرهيبة ، وأدرك أنها أثارتها ، وتطلعت عيناها الى

عينيه ، فشاهدت فيهما رغبة متأججة فقال لها :
« هل تحبين ركوب الخيل ؟ » .
« أجل ... قليلا . » . قال : « غدا ستمتطين جوادا معي لنقوم بجولة سويا . أما الليلة .. » . وصمت قليلا .. ثم واصل حديثه :
« أما الليلة فسوف تتعلمين كيف تعيشين مع وجهي ولمسة يدي التي قد تحرق جسمك » .

وقبل أن تشرع في التحرك لف ذراعيه حول وسطها وبدأت خطواته تغادر الأسطبل ، وهو يحملها ليمر من تحت البهو المؤدى الى المنزل الغارق في الصمت .والأن أصبحا وحيدين تماما ، بعدما انتهت الحفلة ، وشعرت رافينا بضربات قلب مارك تدق وهو يرتقي درجات السلم ليصل بها الى برج الفارس . كانت يداه قويتين وهما ممسكتان بها وشعرت أنه ليس هناك أى سبيل للهرب منهما .

وأخيرا وصلا الى باب دفعه بقدمه فانفتح ، وكانت القناديل المعلقة بجوار الفراش مضاءة وتلقي بظلالها المتوهجة على الأغطية المطرزة التي تكسو السرير الكبير ، وتطلعت ببصرها الى الفراش ثم الى الوسادتين عندما أنزلها مارك عن ذراعيه لتقف على قدميها .

ترنحت رافينا من جراء المرح الذي استمتعت به ، وشراب الجنوب الذي انتشت به ، ولأنه حملها على ذراعيه الى غرفة العروس بمقصد لا يخطيء معناه ، ولم تشعر إلا ويدها تمسك بأحد أعمدة السرير ، وتاجها الأحمر يهوي من فوق رأسها ، ووشاحها يتهدل فوق كتفيها . وشخصت ببصرها نحو مارك فامتلأت عيناها بالخوف من هذا الغريب الأسمر الذي يعد زوجها .. وهو ينظر اليها بعينين سوداوين تحترقان بلهب مكبوت . قال لها بهدوء :
« لم يكن من شروط الاتفاق أن نعيش منفصلين . أنت تعرفين بنوده قبل زواجنا ، ولابد أنك أدركت معني كل كلمة من كلماته . إنني أريد زوجة »
وأبيضت أصابع يدها وهي تقبض على عمود السرير ، ثم قالت :
« لكي أنجب لك ولدا آه أجل أعرف الشروط يا مارك ، ولم يراودني الأمل يوما بأنك سوف تعدل عنها ، بل لم أتوقع ذلك منك » .
« هل كنت تتوقعين أن تجدي عاشقا ؟ » .
واجهت عينيه وهي تقول :

« طبعا أنا لست طفلة يا مارك أنا أعرف أن في وسع الرجال الشعور بالرغبة دون الاحساس بالحب » .
«زلها : « أي رجل علمك هذا ؟ » .
أجابت : « المرأة تعرف أشياء كثيرة من دون حاجة الى أن تتعلمها » .
وتركت شعرها يتهدل حتى وصل الى مستوى قلبها بينما كان مارك يخطو خطوة كبيرة نحوها ويقبض على رسغها ، ثم يقول لها :
« هل تظنين أنني لا أعرف أنك تشيرين بذلك الى رودري برينين ، وأنك مازلت تهتمين به حتى الآن ؟ » .
سألته : « وكيف لي أن أقول إنني لا أشعر بشيء ؟ كيف لي أن أنسى السنوات السعيدة ؟ » .
فاشتدت قبضة مارك على رسغها وكأنه يبغي تحطيم عظامها ، فنظرت اليه ورأت في عينيه صورة لكل ما فعله به رودري الذي شاطرها أسعد أيام الطفولة وسنوات المراهقة ، وحفلات الرقص التي دعاها اليها ، وهو متألق في زيه العسكري ولكنه كان يبدو لها ضعيفا في حين ترى مارك قويا لا تنثني قناته .
قالت له : « إننا نحكم على الناس من زاوية شخصية بحتة ، فأنت تكره رودري ، وأنا أدرك ... » .
فقاطعها مارك قائلا : « أنا لا أفهم كيف يمكن أن تحبيه ! » .
وتوقف قليلا عن الحديث فرأت وجهه كالثوب الأبيض ، وعينيه الغاضبتين تعكسان نظرة ألم ، ثم أردف يقول :
« كلما نظرت إليك أرى برينين في عينيك ، وكلما اختلينا سويا أراه يشاركنا الغرفة » .
فقالت له : « لأنك تحاول دائما أن تتذكر اسمه في حديثنا . هل من المحتم عليك أن تبدو قاسيا هكذا يا مارك ؟ ألا تظن أن رودري قاسي هو الآخر الشيء الكثير ؟ » .
« إنني أتوقع أن يصحو ضميره ـ هل عاد الى انكلترا لأن ضميره دأب على مطاردته ، ورأى أن يغرق دوي الحادثة بين ذراعيك : ؟ » .
صمت مارك ، وعندما اقترب منها سطع ضوء المصباح فوف صفحة وجهه ثم أردف يقول : « هذه الليلة سوف تنسين رودري ، سوف تنسين كل انسان في الوجود الا أنا ! » .

أنصتت رافينا اليه ولم تستطع أن تتفوه بكلمة ، وكان الصمت مطبقا وهي واقفة تتطلع اليه ، والى عينيه السوداوين ، كسواد الليل الذي غاب فيه القمر ، وأحاط المنزل في كنفه . وكان البحر صامتا ، وأشجار السرو ساكنة ، وألسنة الغضب والألم تتوهج في عينيه . وأخيرا .. قالت شيئا . هل تفوهت باسمه ؟ .. كل ما تعرفه أن الأرض اختفت من تحت قدميها عندما حملها على ذراعيه ، وأخفى الندوب في لهب شعرها الداكن .

هل كان مارك صادقا عندما أخبرها في اليوم التالي بوجود بعض المشكلات في أحد مصانع الموالح وضرورة ذهابه الى هناك لحلها ؟ لم تستطع رافينا أن تقرأ شيئا في عينيه بعد أن استيقظت من نومها ، واكتشفت وجوده بجوارها ، وشعرها الأحمر ملفوف حول عنقها .

رحل مارك قبل الظهر ، وفي المساء وصلت رسالة تخبرها بأنه سوف يتغيب يومين أو ثلاثة ، وأرخت رافينا عينيها وهي تتناول طعام الغذاء مع جوكاستا حتى لاترى مدى الارتياح الذي غمرها لغياب مارك . إنه ارتياح يبعث على الاسترخاء للتخلص من التوتر المستمر الذي يثيره وجود مارك ، وفي وسعها الآن أن تستكشف الشاطيء الذي يقع تحت المنزل . الحياة تدعوها الى الارتماء في أحضانها ورافينا تعشق البحر وخاصة أنها سباحة ماهرة . وكم كانت ممتعة تلك العطلات التي أمضتها على الشاطيء بصحبة جاردي .. و رودري .حاولت أن تسدل الستار لتمنع عقلها من التفكير في رودري ، ولكنه كان يقتحم دائما خلوتها بطريقة تجعلها تحس بأنه يفكر هو الآخر فيها ، فتنهدت وأحست أن دونا جوكاستا تراقبها بحدة وسألتها :

« هل تفتقدين وجوده ؟ » .

فتطلعت رافينا اليها ، ووجدت عينيها مسلطتين عليها :

« هل تقصدين مارك ؟ » .

« ماركوس ؟ أجل ! ومن سواه ؟ هل هناك شخص آخر غير زوجك تفكرين فيه ؟ » .

واكتنف سؤالها شك حاد فقد كانت رافينا تعرف أن الجدة ستراقب حياتها طوال فترة غياب حفيدها وربما طلب منها أن تراقبها عن كثب . قالت رافينا بحرص : « أشعر بحنين للوطن . هذا كل ما في الأمر . كل انسان ماعدا مارك يعد غريبا علي ، وغدا سأعتاد على بيتي الجديد » .

« تجهمت جوكاستا : « إنني أدير هذا المنزل منذ ماتت دوناتا ، ولن يطول بك الزمن حتي تكوني قد تسلمت مفاتيحه مني » .

قالت رافينا بتأكيد واضح : « أنا .. أنا لا أريد المفاتيح . إنني سعيدة بأن أدع لك تدبير أمر الكازا . إنني لا أريد أن أقلب وضع الأمور أو تغييرها » .

سألت الجدة العجوز : « لماذا ؟ ألأنك لا تحاولين الاهتمام به ؟ » .

وكان هذا الرأي قريبا من الحقيقة وكانت رافينا سعيدة عندما تحولت لتناول قطعة من الكعك المغطى بالكريم ، وبعد الغذاء استأذنت من دونا جوكاستا في الانصراف للقيام بكتابة بعض الرسائل ، وبعدما استجمعت أعصابها بكتابة رسالة الى جاردي تخبره فيها عن سعادتها في المنزل الذي تحيط به أشجار السرو ، ووصفت له الحفل الذي أقيم احتفالا بزفافها ، والقرية التي تقع فوق التي... ثم راحت تكتب رسالة الى رودري ، ولكنها ما كادت السطور تبلغ منتصفها حتى كورت الخطاب في قبضة يدها وألقته في نار المدفأة ، فقد رأت أنه لم يعد لديها شيء تضيفه الى ما قالته له في يوم زفافها ، فهي تعرف تماما أن سلامة صحة جاردي تتوقف اساسا على السرية التامة لكل ما حدث ، واذا اعترف رودري لأبيه بأنه قتل ابن مارك فمن المحتمل أن النبأ سيؤدي الى قتل جاردي . وفي صباح اليوم التالي توجهت الى مكتب بريد القرية لتبعث برسالتها ثم اتخذت طريقها على الدرب المؤدي الى ساحل البحر ، وعندما بلغت الشاطيء ، وجدته مهجورا فتخلصت من خفها ، وجرت الى الامواج المتكسرة لتستمتع ببرودة الماء فشعرت بالهدوء والطمأنينة . وفجأة قطع عليها خلوتها صوت نباح كلب صغير ، مبلل بالماء ، أخذ يتسلل من بين الصخور ليقترب منها ، ويقف أمامها ساكتا ، مشدوها مثلها . وتحول نباحه الى هرير قصير . قالت له : « حسنا . أنا لست أخشاك . وأنت بالتأكيد لا حاجة بك الى أن تخشاني » .

وهمد الهرير ، وبدأ الكلب يتقدم منها وهو يهز زيله . كان كثيف الشعر ، تتهدل خصلات منه فوق عينيه . شكله يدعو الى الضحك وهو مبتل ، وهذا النوع من الكلاب تحبه رافينا أشد الحب .

سألته : « من أين أتيت ؟ » .

ومدت له يدا حانية ، فأحنى رأسه ، وأخرج لسانه ليلعق يدها ، بينما راح ذيله يتأرجح بقوة ، وفجأة سمعت رافينا صوتا ينادي : « تيو ! » .

كان الصوت أتيا من وراء الصخور ، فتطلعت في اتجاهه ، ورأت رجلا ينسل من بين الصخور ، عاري القدمين ، شعره مجعد ، نحيل القوام ، يرتدي سروالا ضيقا أزرق اللون ، تعرضت أكثر أجزائه للبلل، وقميصا أبيض اللون وصلت فتحة الصدر الى وسطه ، وتتراقص مدالية على صدره البني العاري . واستطاعت نظراته الجريئة أن تلتقط كل صغيرة وكبيرة من مظهر رافينا ، ثم استقرت أخيرا على شعرها الذي استحال لهيبا عندما سقطت عليه أشعة الشمس ، وراحت الريح تعبث بخصلاته فوق كتفيها .

قال الشاب وهو يقترب منها ، وقد انفرجت شفتاه عن صفين من الاسنان البيضاء : « عثرت على صديق لك يا تيو .. أليس كذلك ؟ » .

صمت قليلا ثم قال بالايطالية : « صباح الخير يا سنيوريتا » .

ثم أردف يقول بالانجليزية وكأنه يعرف شخصية من يحدثها :

« كيف للإنسان أن يعرف مبلغ سعادته في هذا الصباح عندما يعثر على صديق فوق رمال الشاطيء ؟ » .

تأملته رافينا مليا ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها رأته في حفل الأمس . كان لديه ذلك النوع من النظرات التي لا يستطيع المرء نسيانها . وتقدم منها وانحني انحناءة خفيفة وقال :

« يجب أن أقدم نفسي لك . أنا ستيليو فابريزي . لا أدري إن كنت قد سمعت عني أم لم تسمعي ، إنني يا سنيورا ، رسام ! » .

وفي الحال تذكرت رافينا الاسم ولكنها شعرت بعينيه تدغدغانها حين تحدثت لتقول له :

« هل تقوم بطلاء البيوت يا سنيور ؟ إنه عمل مثير . أظن أن بيوت البحر الأبيض التي طليت بالألوان أصبحت شيئا فريدا ، اذ أنها تنسجم جيدا مع أشعة الشمس والبحر » .

ضحك الرسام بمرح وقال : « من الغرور أن أدعي بأنني أحظي بشهرة كبيرة . أنت العروس الجديدة وسوف تنسجمين بدورك مع أشعة الشمس والبحر ، وكان ظني أن تكوني شقراء باردة ذات نظرة نافذة ومقلقة » .

قالت بهدوء :« أنني أسفة أن أخيب تقديرك ، يا سنيور فابريزي » .

قال وعيناه تأسران عينيها :

« لم يخب ظني بل أعتبر نفسي سعيد الحظ لأن أجد فيك الشخص

الجدير برسمه . إن صور عرائس أسرة دي كورزيو رسمها مشاهير الفنانين ، وعندما سمعت أن مارك دي كورزيو قد تزوج ثانية ، قررت أن أتي وألقي نظرة على عروسه » .قالت لتسأله :

« أوافق أتن أت زوجي سوف يختارك لرسم صورتي ؟ » .

رأت رافينا فيه الجرأة والشجاعة ، وأحست أنه من السهل عليه مكايدته وهو في ذلك يختلف عن مارك الذي يموج عامل الخوف دائما في أعماقه ، ويدرك تماما أنه متحجر القلب ، وتبدو قساوته على وجهه ، وانتشلها الرسام من تفكيرها حينما قال : « مارك دي كورزيو رجل مشهور ، وحيث أنني أقيم في فيلا صغيرة تقع على الساحل الزمردي ، فإنه سوف يستدعيني لرسم صورة زيتية لعروسه البريطانية » .

« أنا من مقاطعة ويلز يا سنيور » .

وجال ببصره نحوها متفحصا فشاهد شعرها الأحمر ، وعينيها الخضراوين ، وشموخها وهي تقف بين الأمواج المتكسرة ، والزبد المتطاير يتناثر خلف شعرها . قال لها متمهلا :

« أجل أرى فيك سحرا أخاذا ومن دواعي السرور أن أرسمك يا سنيورا دي كورزيو » .

قالت : « إنني أفترض جدلا أن مارك سوف يستدعيك لرسمي » .

قال الرسام بصوت يشوب الكبرياء نبرته :

« لا أنتظر عودة زوجك حتى أسأله القيام برسم صورة لك ، فقد اعتدت ألا أستأذنه عندما يعجبني منظر طبيعي أخاذ يدفعني الى رسمه . فما بالك عندما أرى امرأة جميلة ! » .

« أكاد أكون جميلة يا سنيور .. »

قال مبتسما : « إذن دعينا نقول أنك فاتنة مثيرة ، ما رأيك في سردينيا .. هذه تالجزيرةالتي نطلق عليها نحن الايطاليون هذا الاسم . إنها تشبه الخف »

أجابت : « إنني أجدها جذابة نقية من كل فساد . ولو كنت فنانة لتوقعت ألا أقاوم اعراءات الجمال » .

قال : « عروس لا تقاوم الاغراءات» .

وتطلع اليها ستيليو فابريزي بنظرة يشوبها حب الاستطلاع ، نظرة دفعتها الى البحث عن خفها الذي تركته في منتصف الشاطيء فقامت لإحضاره .

وعندما سار الى جوارها رأت فيه رجلا قوي البنيان ولكنه ليس في طول مارك ، وفي لحظة تجسدت فيه صورة رودري وهو يسير الى جوارها .

وأخيرا قال لها ستيليو : « حلقة الصندل التي يتعلق بها أصبع القدم ، هل هي مؤلمة ؟ » .

ولوهلة لم تستطع رافينا أن تدرك المعنى الذي يعنيه ، ثم عرفت أنه يشير بطريقة مهذبة الى الحياة في الجزيرة ، والى كونها عروسا لرجل مثل مارك ، فتألقت عيناها ببريق أخضر عندما غمرتها أشعة الشمس فتوتر الفنان وهو يتطلع اليها . قالت له : « اذا سألتني يا سنيور اذا كنت أشعر بالراحة في الكازا فإنني سأجيب عليك بأن الأمر سيستغرق من المرء بعض الوقت حتى يحس بالاستقرار في وطن غريب » .

فقال متعمدا : « لديك عينان جميلتان يا سنيورا ، ولكنني لا أرى أي نجوم فيهما » .

سألته : « هل تبحث عنها في وضح النهار .. يا سنيور » .

خيم الصمت عليهما ثم قال : « يجب أن تشاركيني طعام الغذاء ، لدي زورق صغير في المياه وراء الصخور ، ولدي سلة وضعت فيها مديرة منزلي ألوانا مختلفة من الطعام ، هل ترغبين في مشاركتي ؟ »

تطلع ببصرها الى لسان الأرض الداخل في البحر حيث برز جناح من الكازا ، وفكرت رافينا أن دونا جوكاستا تتوقع عودتها لتناول طعام الغذاء معها في الصالون ، وسوف تسألها عن المكان الذي قضت فيه كل فترة الصباح ، وعن الشخص الذي أمضت معه كل هذا الوقت ، ولذا وجدت من الصعوبة أن تلبي دعوته لتناول الطعام معه ومع كلبه ، لذلك قالت له :

« شكرا ، حقا إني جائعة ولكن عبور الطريق الى الكازا يحتاج الى وقت »

صوب الرسام بصره الى المنزل ورأى ستارات النوافذ مسدلة تحول دون دخول شمس الظهيرة الى غرفه ، والشرفة المطلة على البحر تبرز فوق الربوات ، ويبدو أن للمنزل مظهرا منيعا ومنعزلا ، وكأنه شيد ليبعد عنه أي طارىء غريب تمتم ستيليو قائلا : « لن يضيق زوجك اذا ما شاركتني طعام الغذاء » .

قالت : « مارك في رحلة عمل » .

« فهمت ... ترك عروسه ليلهو قليلا .. ما رأيك ؟ » .

قالت : « لا أشعر بأي ضيق . مارك لن يدع عمله ينحدر الى الحضيض

بسببي » . وكز ستيليتو على أسنانه وهو يقول :

« يا إلهي .. لو كان زوجك ايطاليا لن يدعك وحدك هكذا . بل سيقضي حياته بصحبتك . لا يفارقك ليل نهار ! » .

قالت : « ما أرهب هذا وأشبهه بالحجز الانفرادي ، إنه السجن » .

قال ستيليو وكان صوته اللاتيني يربت بحنان على كلماته :

« إنك سجينة الحب ، لا يسع الرجل العاشق الا ان يقول : اذا لم يكن عندي شيء غير باقة من الورد فإنني سوف أقاسمك إياها ! » .

« أنت شاعر يا سنيور فابريزي ، ولكنك بالكاد تتلاءم مع متطلبات الحياة اليومية . أنا أفضل أن يقتسم الرجل طعامه معي . إني جائعة » .

قال لها مؤنبا : « أنت تقولين عبارات تكادتتفق مع لهيب شعرك ، والجواهر التي تتلألأ في عينيك » .

« إن الشعر يتبدد اذا ألقي على مسامع امرأة جائعة . هل لديك قهوة في سلتك ؟ » .

قدم لها يده وهو يقول : « دعينا نذهب وسوف ترين » .

تسلقا الصخور ، وبلغا خليجا أرسى فيه ستيليو زورقا صغيرا في مؤخرته محرك فنقل من الزورق سلة الطعام ، تحت شجرة وارفة الظلال جلسا اتناوله وكان يتكون من السجق والخبز والجبن والزيتون وشرائح الليمون . وبعدما فرغا من الأكل احتسيا القهوة المكثفة ، وانتابهما شعور بالتخمة فطلبا الراحة . وكان الجو باردا حولهما ، بينما كانت أشعة الشمس تبعث الحرارة خارج الرقعة التي جلسا فيها .

قال لها فابريزي :

« يجب أن تتيحي لي الفرصة لرسم صورة لك يا رافينا » .

« يجب أن استشير مارك في ذلك يا سنيور ، لأنه تحدث معي بصدد رسم صورة لي ، لكنني لم أكن شغوفة بالفكرة » .

ومال عليها ستيليو يتفرس وجهها ثم سألها : « ولم لا ؟ أنت خائفة من فنان فطن سوف يرى أشياء في عينيك تكشف عن امرأة غير سعيدة البتة ؟ »

دفنت أصابعها في الرمل الناعم ، وودت أن تقول له انها سعيدة تماما ولكن ستيليو راح يربت على يدها . كان طيب القلب متفهما لعواطف الآخرين . ويدرك أن الشقاء جزء من الحياة مما يجعل الناس موضع الاهتمام .

وخاصة بالنسبة اليه كفنان .

قال لها : « إن الجو يكون أكثر برودة فوق سطح الماء . دعيني أصحبك بزورقي في رحلة بحرية . إن زوجك غائب عنك » .

سحبت يدها من تحت يده وقالت :

« وهل تظن إن الفأر من حقه أن يلعب في غياب القط ؟ » .

ضحك ستيليو وبصره مصوب نحو شعرها الأحمر ، وقال :

« رافينا إنك لست فأرا . إنك تشبهين لوحة للرسام تيتيان حيث تعكس العينان الحيوية والخجل ، أنت تختلفين تماما عن دوناتا » .

سألته : « هل كنت تعرفها ؟ » .

شعرت رافينا بأنفاسها تتلاحق وهي تسأله عنها اذ سرعان ما تتمثل أمام عينيها صورة المرأة التي أحبها مارك عندما يبدأ أي شخص الحديث عنها .

أجاب فابريزي : « إلتقيت بها في صحبة مارك في روما ، ولم يكن قد مضي على زواجهما فترة طويلة ، ورسم صديق لي صورتها في مرسمه . كانت مخلوقا جذابا ذات عينين داكنتين ، وفم كالزهرة المتفتحة ، وأخبرني صديقي الفنان أنه كان مأخوذا بها عندما رسمها ، لأنها تدعوك الى حبها وهي تعيش قصة حب » .

خفضت رافينا عينيها وكأنها ترى بوضوح إشعاع جمال دوناتا . فسألته :

« ما هو الانطباع الذي تركه مارك عليك في ذلك الوقت ؟ » .

قال ستيليو عن عمد : « كان في صورة رجل له مهابة رومانية ، وهو جالس في مرسم أرنو . كان يدخن ، وعيناه تشعان الرضا وهو يراقب اللمسات الأخيرة التي يضعها الفنان في صورة دوناتا . أتذكر أنه وزوجته كانا ينعمان بكل شيء يرغبان فيه .الجمال ، الثروة ، الحب ، ولم أشاهد أي ظلال للشقاء في عينيها أو بادرة تشير الى أنه وزوجته سيواجهان مأساة في ذلك اليوم » .

نهضت رافينا واقفة على قدميها ، وراحت تنفض الرمل العالق بثوبها القطني وقالت : « بربك ، لا تقل المزيد عنها ، خذني في الرحلة البحرية ، أرجوك » .

وقطعا شوطا في عرض البحر حتى وصلا الى إحدى الجزر الصغيرة . حيث يوجد كهف يمكن للزورق أن يندفع خلاله ، وكانت المياه تحت الزورق صافية وزرقاء .. يمكن من خلالها رؤية الأسماك وهي تقفز كالسهام

ابتسم ستيليو وقال : « هنا يجب أن أرسم صورتك وأنت جالسة على الصخر مثل حورية تشدو بأغنية » .

قالت وهي تعبث بأصابعها في الماء :

« من المفروض أن أشدو بأغنية من أغنيات ويلز »

وعندما بدأت تغني ترددت أصداء الأغنية بين جنبات الكهف مما آثار الكلب تيو ، وراح ينبح نباحا أشبه بنحيب جنية ايرلندا التي فقدت عزيزا لديها فانفجر ستيليو ضاحكا ، وبدأ يدير المحرك ، ويتجه ثانية بالزورق الى عرض البحر ، وكانت الشمس قد بدأت في المغيب عندما ألقى الزورق مرساه تحت المنزل ، واشتعلت الشمس بلهب قرمزي ألقى ظلاله على البحر ، وأخذت سحب الصيف تستكين في الأفق ، وعندما تطلعت رافينا الى مغيب الشمس أدركت عدد الساعات التي أمضتها غائبة عن الكازا .

قال لها ستيليو وهو قابع في زورقه :

« أحب أن أبدأ غدا رسم الخطوط الأولى لصورتك » .

وقفت على الشاطيء تلوح له بيدها وترسم على شفتيها ابتسامة وهي تقول له : « لن أستطيع . يجب أن أستأذن مارك أولا » .

سألها ستيليو ساخرا : « هل تخضعين دائما لأوامر زوجك ؟ » .

بدأ الجو يميل الى البرودة والسحب تلقي وشاحها على الشمس الغاربة ، وكانت رافينا تدرك أن الكآبة والانقباض قد يأتيان مع ختام الحفل .

قالت له : « أنت لا تعرف أن مارك لم يعد الشخص الذي التقيت به في روما . إن من الكياسة أن تتحدث معه أولا ... يا ستيليو » .

قال لها : « سأمتثل لطلبك يا رافينا . الوداع » .

« وداعا يا ستيليو . وداعا يا تيو » .

وتردد نباح تيو عبر الماء .. بينما أخذ صوت المحرك يخفت تدريجيا عندما أخذ الزورق يبتعد عن الشاطيء وأخيرا خيم صمت . ولكنه صمت لن يطول أمده فبعد لحظات سوف يبدأ المد وتتلاطم الأمواج فوق الصخور ، فأدارت رافينا ظهرها للبحر ، وإتخذت سبيلها الى المنزل . وأرخى الليل سدوله ، فأضيئت مصابيح باب الفناء ، ودلفت الى المنزل على أمل أن تتجنب لقاء دونا جوكاستا ، ولكن السيدة العجوز كانت تجلس على مقعدها بجوار المدفأة وقدماها الصغيرتان تستريحان فوق المقعد الصغير ، وعيناها الحادتان تتطلعان

الى عقارب الساعة التي تشير الى الوقت الذي عادت فيه العروس الهاربة .
سألتها : « أين كنت طوال اليوم ؟ » .
أجابت : « على الشاطيء » .
كانت رافينا تقف وسط الصالة بقوامها النحيل وشعرها المشعث وثوبها الغضن وذرات الرمل عالقة بأطرافه وأحست أنها صغسرة أمام الجدة . فراودتها الرغبة في الفرار ، ولكن هروبها كان يدنيها بارتكاب جريمة ، وهي لا تشعر بأي جرم في تمضية الساعات بصحبة ستيليو فابريزي ، فقد ساعدها على أن تخفف من ألم بعادها عن وطنها ، وهي ممتنة له .
قالت الجدة : « بابتيستا قالت أنك في صحبة رجل . أرسلتها للبحث عنك ، ما قولك ؟ » .
قالت رافينا بصوت يشوبه التحدي : « بابتيستا تتمتع بحدة البصر ، التقيت على الشاطيء بصديق لمارك هو سنيور فابريزي » .
التقطت دوناجوكاستا أنفاسها وقالت متسائلة : « الفنان ؟ » .
أجابت رافينا : « أجل » .
« كل الفنانون مرحون ولكنهم أشرار مع ذلك أمضيت اليوم كله معه ؟ »
قالت رافينا : « أغلب اليوم ... وبصحبة كلبه ! » .
ثم اتجهت لترتقي درجات السلم وهي تقول :
« إنني متسخة ، وأرغب في الاستحمام » .
قالت السيدة العجوز : « لحظة أرجوك .. » .
فاستدارت رافينا طائعة : «لن تري هذا الرجل مرة أخرى إنني أمنعك » .
قالت رافينا وقد شاب الغضب صوتها : « أنا لست طفلة يا دونا جوكاستا . ليس في وسعك أن تمنعيني من اقامة أية صداقة مع أحد أو تنصبي نفسك تنينا علي لمجرد أن مارك غائب عن البيت عدة أيام . إنني لن أنصاع لأمرك » .
« ماركوس تركك في رعايتي » .
« هل طلب منك حبسي في البرج ، وأن يقتصر طعامي على قطعة خبز وماء ؟ حسنا ، لن أنوي أن أكون سجينة في هذا البيت المظلم . سأتوجه غدا الى الشاطيء ، وأرجو أن أجد سنيور فابريزي هناك . إنه يضحك دائما يا سنيورا ، إنه ممتليء بالحياة ويتطلع الى المستقبل ، ولا يعيش في الماضي كل

وقته »... وأخذت رافينا ترتقي الدرجات بسرعة ، وعبرت البهو الى الفسحة المؤدية الى برج الفارس ـ حيث كانت وجنتاها ساخنتين ، وقلبها يدق دقات متلاحقة ، وشعرت أنها تكره مارك لأنه أصدر أوامره للتجسس عليها كما تكره هذا البيت ، لذا قررت أن تقضي اليوم بطوله غدا في أحضان الشمس الريح ... وفي صحبة ستيليو ! .

* * *

٥ ـ أصدقاء أم عشاق ؟

شعرت رافينا باجهاد في اليوم الذي أمضته على الشاطيء ، لذلك استيقظت اليوم التالي في ساعة متأخرة من النهار ، ورأت أشعة الشمس تملأ غرفتها ، وأدركت أنها نامت فترة طويلة . جلست على الفراش فوجدت صينية بجوار السرير ، وضعتها على ركبتيها وصبت فنجانا من القهوة ، وأكلت المربى والبيض بشهية . وأحست أن النهار ملك لها ، تفعل ما تشاء ، فان دوناجوكاستا لم تستطع أن تجعلها سجينة غرفتها .

وبعد انقضاء ساعة ، اغتسلت رافينا وعقصت شعرها في تصفيفة ذيل الحصان ، وارتدت بلوزة وسروالا فبدت أكثر شبابا ، وعندما تطلعت الى المرزة توادر الى ذهنها صورة دوناتا المعلقة في برج المادونا ، وتذكرت ما قاله لها ستيليوفابريزي عن مارك عندما التقى به في روما منذ ست سنوات . كان بهي الطلعة ، سعيدا ، بلا ظلال شقاء في عينيه .

راودتها الرغبة في أن تشاهد الصورة الان قبل أن تذهب الى الشاطيء وأسرعت بفتح باب غرفتها ، فلم تجد أحدا فالخدم منهمكون في تنظيف وتلميع الدور السفلي ، ولن تحظي غرف الدور العلوي بالاهتمام الا في ساعة متأخرة من النهار وهذا يتيح لها فرصة للتسلل الى برج المادونا دون أن يلحظها أحد . انسلت من باب صغير في جدار برج الفارس ووجدت نفسها أمام جسر حجري صغير يربط بين البرجين ، وكان برج المادونا يشبه برج الفارس في تصميمه ، فعثرت على باب صغير في الجدار قادها الى ممر معتم يتسلل اليه النور ضعيفا من نافذة ضيقة ، وكانت الغرفة التي عاش فيها مارك مع دوناتا لا تختلف عن غرفة العروس التي يشغلها الآن مع رافينا .

كانت غرفة دوناتا تكسوها الكزبة ، وأسرار الماضي أصبحت رهينة أثاثها وتحفها ، والستائر المسدلة تطوي الهمسات التي دارت بين الجدران و السجادة

صامتة صمت الدخان وهو يسعى هادئا والحائط يحمل صورة الفتاة التي عبدها مارك . لم تستطع رافينا أن تدرك ملامح زوجة مارك الأولى أو الثياب التي ترتديها وكانت الشمعدنات مطفأة وهي قابعة تحت اللوحة ، والى جوارها علب الثقاب وتشير الى أن شخصا م يأتي بين حين وآخر ليشعلها ويقوم بتأمل اللوحة وسط السكون الهامس الذي يشيع في أرجاء الغرفة . أشعلت رافينا الشموع فألقت بأضوائها على الصورة ، فرأت الثوب الذي ترتديه دوناتا . كان يمثل عصر ميدتشي ، وقد تهدل في ثنايا رقيقة فأبرز قوامها النحيل ، وتناثرت اللآليء على شعرها الأسود وصفوف أخرى منها تحيط بعنقها الأبيض الطويل . من الممتع أن يتأمل المرء صورتها بقدر أمله لفقدها .

حملت رافينا شمعدانا ، وأحست أنها فقدت الاحساس بالزمن عندما راحت تتأمل الفتاة التي منحت مارك نعمة المرح لدرجة أن أية امرأة لم تستطع أن تشغل بعد رحيلها مكانها في قلبه أو عقله أو أحاسيسه . كانت تبدو شابة ومارك في العشرين عند زواجهما . كانت دوناتا هبة من السماء .

التقى بصر رافينا بعيني دوناتا ، وفي لحظة رأت فيهما الحيوية والوعي والعداء لها . وفجأة سرى تيار من الهواء أطفأ اللهب المشتعل في الشمعة فتراقصت الظلال في الغرفة ، وعندئذ انتابها ذعر شديد ، فأسرعت الى الباب تبغي الهروب ، وعالجت المقبض يمينا ويسارا ، ولكن الباب كان مغلقا بل موصدا . وقفت رافينا مذهولة ، ولم تصدق أنها أصبحت سجينة البرج ، وأن أحدهم تسلل عبر الممر الضيق ، وأغلق الأبواب وراءها وهو يعرف أنها هنا وحدها مع الصورة . تملكها الغضب وراحت تدق الباب بقبضة يدها مرة ومرتين حتى أدركت ألا جدوى من محاولاتها ، وأنها أصبحت سجينة لأحد سببين : إما لمعاقبتها على ما فعلته بالأمس أو بهدف إرهابها .

أدارت ظهرها للباب وأسرعت الى أقرب نافذة وأزاحت الستارة جانبا ، وفتحت مصراعيها وأطلت برأسها وجدت المسافة طويلة بين البرج وفناء البيت الواقع تحتها . كانت عيناها الحزينتان وشعرها المتهدل يوحيان بأنها حورية سجينة البرج منذ مدة طويلة ، ولكنها تبحث عن طريقة للهروب أو فارس يسرع الى إنقاذها .ولكن ليس من منقذ ، كان الفناء شاغرا والعمال في حدائق الليمون مختفين وراء الأشجار وكانت الريح تهب حول البرج ، وصيحات الطيور أشبه بصرخات السخرية ، لديها أجنحة تطير بها كما تشاء ،

أما هي فسجينة هنا حتى يأتي أحدهم ليطلق سراحها .

دوناجوكاستا سجنتها هنا ، أو أرسلت بابتيستا المطيعة لتفعل ذلك ، إنها ظل سيدتها التي لا تفارقها ، فهي عجوز الآن وتخشي أن تعطي الأوامر حتى لا تفقد عملها في هذا البيت . سرت قشعريرة باردة في جسم رافينا ، ولاتدري كم من الوقت مضى عليها وهي سجينة ولابد أن تمر ساعات طويلة قبل أن تطلق دوناجوكاستا سراحها من البرج ، إنه مجرد درس تلقيه على عروس مارك لأنها تجرأت وتحدثت الى رجل ، وتحدتها بعزمها على مقابلته ثانية .تطلعت الى الجدران لعلها تجد سردابا سريا ، لاشك أن هذه الفكرة محتملة . فقديما في عصر غارات القراصنة كان الإنسان يشيد بيته بحيث يضم غرفا سرية فيها تختبيء أسرته أو يبني سردابا يساعدها على الهرب اذا ما فكر المهاجرون في اقتحام البيت ، وشرعت رافينا في الطرق على أماكن متفرقة من الجدران ولكن لم تكن هناك أية إستجابة لطرقاتها أو يدور إي إطار بارز ليفتح لها سردابا يساعدها على الهروب من الجدران السميكة .

دارت بعينيها في أرجاء الغرفة ووقع بصرها على المرأة فرأت نفسها ترتدي السروال والقميص الصبياني ، فلم تصدق أنها زوجة مارك وبدا لها أن دوناتا مازالت تحتل مكانها كسيدة القصر ، أما الصورة التي تعكسها المرأة فهي لاتعدو أن تكون صورة طفلة شقية ، وقد قال لها مارك ذات يوم وهما يغادران رافنهول : « أنت ترتدين ثياب صبي وأنا أتوقع أن أتزوج امرأة » .

أدارت بأصابعها خاتمها الذهبي الذي يدل على زواجهما وعادت تتجول في الغرفة حتى وقفت أمام النافذة حيث وجدت فيها فجوة عميقة فقبعت فيها كما يقبع القط المتفطر قلبه ، وبدت السماء الزرقاء ساخنة وأشجار السرو داكنة وهي تناطح عنان السماء . كان الصباح جميلا ، ولكن رافينا ضحكت لأنها اختطفت بهذه الطريقة الغريبة في خلال هذه الساعة المشمسة التي كان من المنتظر أن تقضيها مع ستيليو فابريزي وكلبه تيو ، ولابد أنه حدث الشاطيء بأنها لا تتمتع بالحرية التي تبيح لها أن تنضم اليه في الشاطيء وتتمتع برحلة بحرية ولايدري أن الأبواب أوصدت عليها وأصبحت سجينة .

فكرت في جاردي الذي يعتقد الأن أنها سعيدة عندما يتلو رسالتها التي تسلمها الآن منها ، ولكن أي سعادة تتكلم هي عنها ؟ كيف تجدها في مثل هذا البيت المسكون بالفتاة الفاتنة دوناتا ، وتحكمه سيدة عجوز كانت ترغب

أن يتزوج حفيدها بفتاة من إختيارها . شعرت رافينا بوطأة السكون والوحدة تجثم على صدرها ، وبخوف مفاجيء من أن يمضي مارك غائبا لعدة أيام فتقع تحت رحمة تصرفات شاذة أخرى ، ومزيد من المؤامرات التي تثبط من روحها ، وتصبح في النهاية ظلا مطيعا مثل بابتيستا . عندئذ صرخت قائلة :

« لا » . وجرت نحو الباب لتتبين ما اذا كان مفتوحا أم مازال مغلقا ، ولكنها وجدته موصدا ، وشعرت برغبة في البكاء وبلعت ريقها ، وحاولت أن تعزي نفسها بأن دوناجوكاستا سوف تطلق سراحها حينما يحين موعد طعام الغذاء ، ولن تكون قاسية فتدعها سجينة حتى يحل الظلام وتسمع نعيق البوم

أخذت وسادة من أحد المقاعد وأزالت الغبار عنها وهيأتها بحيث تستطيع أن تغمض عينيها عليها ، وتعود القهقري الى رافنهول . أجل هناك حيث توجد شجرة الدردار ، والأرجوحة التي سقطت منها يوم أن دفعها رودري عاليا ، وأحست بالسعادة عندما طارت عالية ، والخوف يغمرها ، وصاحت به ضاحكة : « كفى » . ولكن رودري لم يأخذ بصيحتها وواصل دفع الأرجوحة حتى سقطت منها وسمعت صوتا يقول : « رافينا » .

أحست بفزع وشعرت بألم في ذراعها فقالت : « أو .. رودري .. » .

إنسحبت اليد فجأة من فوق شعرها بعنف ، واستيقظت تماما وهي فزعة عندما رأت أن الشخص الماثل أمامها كان مارك وأن الألم الذي أحست به كان نتيجة ضغط كتفها فوق سور النافذة قالت بدهشة :

« مارك ! » .

قال : « أنا أسف لإزعاج أحلامك الجميلة » .

دعكت رافينا ذراعها الخدرة وأحست بدوار قليل :

« لقد .. لقد .. أخلدت الى النوم » .

سألها : « ماذا تفعلين هنا ؟ » .

أحست بعينيه تتأملان شعرها ، وسروالها الصبياني ، وشعرت ببرودة تسري في أوصالها . قالت له :

« أوصد أحدهم الباب علي منذ ساعات مضت . جدتك فعلت ذلك يا مارك أنا أعرف هذا تماما » .

قال متجهما : « أوصدت عليك الباب ؟ الباب كان مفتوحا وفي وسعك أن تتأكدي بنفسك . لماذا تتوهمين أن جدتي تفعل مثل هذا الأمر معك ؟ »

قالت : « أنا لا أتوهم شيئا . إن دوناجوكاستا تكرهني وتريد أن تخيفني »
بدت الدهشة وعدم تصديق كلامها على وجهه . سألها

« أعتقد أنك أتيت الى هنا من قبيل حب الاستطلاع . لم نعد نستعمل هذه الغرف فأصبحت أقفالها صدئة » .

« أوصدوا الأبواب علي ، وقرعت ، ولكنها لم تفتح » .

سألها : « ولكن أين كان المفتاح ؟ » .

« كل مفاتيح البيت مع دوناجوكاستا . أخبرتني ليلة الأمس أنها بحوزتها ، وأنها لن تعهد بها لأحد » .

« هل سألتها عنها ؟ ».

تنهدت رافينا وقالت : « بالطبع لم أسألها . لم نتشاجر بسبب ادارة الكازا وانما .. » .

« اذن أخبريني عن سبب المشاجرة ؟ » .

« ذهبت الى الشاطيء وكنت أنوي الذهاب اليوم أيضا . هناك قابلت ستيليو فابريزي ، وأخذني في زورقه وقمنا برحلة بحرية ، وعندما عدت الى المنزل سألتني جدتك أين كنت ، ولما أخبرتها أمرتني بألا أرى سنيور فابريزي مرة ثانية ، وظننت أنها شخص دكتاتوري فقلت لها بأنها لا تستطيع أن تمنعني من أن أعقد صداقات مع الآخرين . وهذا الصباح لابد أنها رأتني أعبر الجسر المؤدي الى برج المادونا ، وأنا واثقة تماما أنها أمرت بابتيستا أن توصد الباب علي ، حتى لا أستطيع أن أذهب الى الشاطيء » .

« وهل أعددت الأمر لمقابلة فابريزي هذا اليوم ؟ » .

ووقع السؤال عليها مثل لسعة السوط وتذكرت أن الشخص الذي تتحدث اليه هو زوجها ، وأن من حقه أن يعترض بشدة على أن تقيم أية صداقة مع الفنان الجذاب ، قالت بصوت مرتجف :

« أخبرني أنه يريد أن يرسم رسوما تخطيطية لصورتي فقلت له يجب أن يسألك أولا » .

أحكم مارك قبضته وضغط بها على رسغها وبدأت الجهامة تزول تدريجيا من وجهه وقال : « أنا ممتن أنك مازلت تتذكرين وجودي . سوف لا أغضب منك فأنت جديدة على أساليب معيشتنا وتعتبرينها قيدا على حريتك » .

« أعتقد أن حبسي في البرج يعد قيدا على حريتي » .

« لانونا واحدة من أهالي سردينيا ومن المحتمل أنها ظنت بأن ما تفعله هو تأمين لسلامتك » .

« مارك .. هل من المعقول أن أعامل معاملة الطفل العاق لمجرد أنني تناولت السجق والجبن مع سنيور فابريزي » .

س أنت لست طفلة في نظر جدتي ، أنت امرأة بل زوجتي وأهل الجزيرة يعتبرون لقاء رجل بامرأة وحدهما انما لغرض واحد هو أن يمارسا الحب ! » .

« مارك هذا كلام غريب ! في وطني يمكن للرجال والنساء أن يكونوا أصدقاء دون أن يكونوا عشاقا » .

« أنت الآن هنا في وطنك يا رافينا ! » .

اشتدت قبضة يده واقترب منها وهو ينظر الى عينيها مليا ورفع رأسها بيده الأخرى حتى تألق احمرار شعرها في ضوء الشمس الذي تسرب خلال النافذة

« هل لي أن أذكرك بأن من حقي أن أكون الرجل الوحيد الذي يحتل كل تفكيرك ؟ هل جئت هنا لرؤية الصورة المعلقة على الجدران ؟ وهل كانت تحدوك الرغبة في معرفة ما اذا كانت دوناتا أجمل وأدفأ وأكثر أنوثة منك ؟ » .ثم أضاف : « سأطلب من فابريزي أن يرسمك ، عرفته في روما قبل أن يصبح مشهورا في دنيا الفن . طبعا أخبرك بأننا التقيا هناك » .

« أجل يا مارك أنزلني من فوق ذراعيك ، أشعر بدوار وأنا أنظر حولي دون أن أتعلق بسور الجسر » .

« تعلقي بي – ضعي زراعك حول عنقي أيتها الساحره الباردة » .

ضحك مارك وترددت ضحكته في كبرياء وهما يسيران فوق الجسر ، أنه رجل قوي وقاس لايلين مثل الأرض التي يمتلكها ولا تستسلم بسهولة لليد التي تحرثها . وحتى هذه اللحظة كانت رافينا تحس بالخجل من أن تلمسه وتمنت أن يدعها تقف على قدميها وهي تشعر بقناة الصلب الدافيء حينما رأت شخصا يقف تحت المنزل ينظر اليهما فقالت :

« مارك أنظر سنيور فابريزي يتطلع الينا » .

كان ستيليو يلوح لهما وشعرت بنفسها تتحرر من ذراعيه وهي تقول :

« يجب علي أن أذهب لأغير ملابسي وسوف زنضم إليكم » .

وأسرعت تعبر الجسر وتدلف الى برج الفارس ، وأحست بالراحة عندما

وجدت نفسها وحيدة في غرفتها ، وجذبت حبل الجرس لتستدعي الخادم ، وسألته أن يحضر لها ماء ساخنا ، وتعجبت أن مارك لم يمد بيته بأنابيب المياة الساخنة ، وسوف تتحدث معه في هذا الأمر ، وأجفلت عندما امتد تفكيرها الى نفسها كزوجة ، وأن من حقه أن يملي عليها طلباته . عاد مارك الى البيت ، وفي هذه الليلة سيحاول أن يوقظها ، ليس من أجل أن تستجيب لهذا الخدر الغريب الجامح الذي نسميه الحب وانما لتستجيب لهذا الجوع الذي يعربد في أعماقه وتكون ثمرته طفلا جديدا تلده له .

أحضر الخادم الماء يتصاعد منه البخار ، وعندما خرج فضت ثيابها وراء الستائر وغسلت جسمها النحيل وتخلصت من التراب وأحاطت جسمها بفوطة ثم سارت الى خزانتها لتنتقي أحد الأثواب ، لابد أن ستيليو سيبقى ليحتسي شرابا مع مارك وأن يتبادلا الرأي حول موضوع الصورة ، وتحديد موعد الجلسات التي تقف فيها أمام الفنان ، كانت ترغب في أن تظهر على لوحة القماش في صورة أبهى من صورة دوناتا حتى تثير اعجاب الجميع بها .

ابتسمت رافينا رهي تتطلع الى نفسها في المرآة فرأت ساقين طويلتين ونحيلتين وقدمين بأصابع طفل ، وذراعين لهما استدارة محببة وخصلات شعرها الأحمر تنسدل مثل ذوائب اللهب فوق كتفيها الشاحبين . سمعت صوتا يأتيها من خلفها يقول :

« يا للأسف ، إنني لا أسمح برسمك في مثل هذا الوضع الذي أراه الآن » .

سرت قشعريرة في أوصالها بينما كان مارك يعقد رباط عنقه عند باب الغرفة ، فهو الشخص الوحيد الذي يحق له التطلع اليها وهي في غرفة نومها .

قال لها : « دعوت فابريزي لتناول طعام العشاء معنا » .

قالت : « هذا شيء جميل » .

وأمسكت بثوب أصفر اللون وأكمام من الشيفون ، وكان مارك اقترب من المرآة ليثبت رباط عنقه فسألها :

« هل تحبين احتساء الشراب في الشرفة المطلة على البحر ؟ » .

ثم تحول لمواجهتها ، وأجفلت كعادتها من نظرة افتراسها التي تتلألأ في عينيه ، ورسمت ابتسامة على شفتيها حتى تخفي اجفالها ، وقالت له :

« وشيئا لنأكله . إنني لا أستطيع أن أبقى بدون أكل حتى موعد تناول

العشاء . يكاد يغمى علي . » .

ضاقت عيناه وهو يسألها : « ألم تتناولي طعام الغداء ؟ » .

قالت وهي تضحك : « أخبرتك أن أحدهم أوصد الباب علي وأنا في البرج ، ولم يكلف نفسه حتى تقديم كسرة من الخبز أو كوبا من الماء » .

تقدم نحوها في خطوة حازمة وقال : « رافينا أنا أسف أن تفوتك وجبة طعام الغداء وهذه تجربة مثيرة للأعصاب ولن تحدث ثانية . سوف أتحدث الى جدتي بقسوة » .

هزت رافينا يده وقالت : « لا يا مارك سوف يزيد ذلك من عداوتها لي اذا ما تحدثت معها بعنف » .

تجهم وهو يقول : « عداوتها ؟ هل تظنين الأمر كذلك ؟ »

قالت رافينا : « وماذا يكون الأمر غير ذلك ؟ كانت ترغب في أن تتزوج فتاة من بنات سردينيا بدلا من أن تأتي بفتاة غريبة ، ربما فطنت أن زواجنا يا مارك لا يقوم على الحب » .

حدق في وجهها وارتفع حاجباه فرأت فيه الرجل الذي أجبرها على الزواج دون أن يتفوه بكلمة رقيقة وجذبت نفسها منه وتحولت عنه لتأخذ ثوبا وسألته : « كيف عرفت أنني فى البرج الآخر ؟ » .

قال : « الستائر كانت مفتوحة . كان يجدر بك ألا تذهبي الى هناك . الغرف كلها كئيبة ويجب أن تظل مغلقة سألقي نظرة عليها » .

وفي اللحظة التالية غادر الغرفة بسرعه تاركا رافينا وراءه لترتدي ثوبها وتصفف شعرها في شينيون وكانت فتحة الثوب تمتد ما بين كتفيها لتبرز نضارة بشرتها ، وعظمتي الترقوة . وراحت تتأمل نفسها في المرآة وقررت أن تزين صدرها بالصليب الذي أهداه اياها مارك . تحولت رافينا عن المرآة لأنها رأت نفسها في صورة فتاة أشبه منها بالمرأة الناضجة التي يبحث عنها مارك والألم التي تهبه الطفل الذي يتوق الى رؤيته ليمحو من ذاكرته ذكرى الطفل الذي فقده بقسوة . أقبل ستيليو وعلى شفتيه ابتسامة ثم قبل يد رافينا وقال لها

التقينا ثانية يا مادونا والسنيور زوجك أذن لي برسم صورتك ولا أستطيع الانتظار طويلا » .

حيا ستيليو مارك بابتسامة سريعة ثم قدم مارك مقعدا لرافينا لتجلس عليه بالقرب من أزهار البرتقال التي كست جدار الشرفة المطلة على الشاطيء قال

الفنان : « ليست السنيورا موضوعا يسهل ابرازه على اللوحة ولكنني أستمتع بالتحدي » .

سأله مارك : « لماذا لا تجدها موضوعا سهلا ؟ » .

ثم راح يتأمل مليا ثوبها الأصفر ويقارنه بلون نبتة البرتقال المرتعشة وأشعة الشمس الحمراء التي تنعكس على شعرها ثم أردف يقول :

« يبدو لي أن زوجتي لديها الألوان التي تحوز اعجاب الفنان تيتيان ؟ » .

قال ستيليو مؤيدا : « تماما كما تقول . العينان تتغيران من خضرة البحر الى لون أشجار الغابة الغامضة تبعا لتغير مزاج صاحبتهما » .

« أعدك بأن أظل في وضعي ساكنة كلما جلست أمامك يا سنيور » .

وشعرت بالخجل من الطريقة التي تناقش بها موضوع رسمها ، وأحست بالارتياح عندما ظهر رينزيو حاملا صينية عليها المشروبات والسندويتشات وفي أعقابه يسير الظبي بامبو فأقبلت عليه رافينا بفرح شديد . قال رينزيو معتذرا :

« ظن نفسه كلبا كبيرا يا سنيورا ، فاقتفى خطاي هل أعود به الى الاسطبل ؟ » .

ابتسمت رافينا وربتت على أذني الظبي وقالت :

« دعه لي يا رينزيو انه جذاب أليس كذلك ؟ » .

قال مارك : « لا يمكنك أن تتناولي السندوتشات والظبي في حجرك . انظري انه يحك أنفه في شعرك » .

أشارت رافينا بأصبعها الى الظبي تحذره قائلة : « اهدأ » .

ثم التفتت الى مارك وقالت : « سيكون رائعا متألقا مثل الذهب » .

قدم مارك لها طبقا عليه السندوتشات ثم التفت الى ستيليو وقال :

« هل تشرب كأسا يا سنيور فابريزي ؟ » .

قال ستيليو وهو يتقبل الكأس : « شكرا » .

ثم تطلع الى رافينا والظبي وأردف قائلا :

« وجدت الآن فكرة الصورة التي سأرسمها لك بينما الظبي يقبع في حجرك أو ربما أدعه يبقى تحت قدميك » .

« هذا اذا جلس فترة طويلة ساكنا . ألا تشاركني تناول السندوتشات ، انها لذيذة ؟ » .

كان مارك غارقا في مقعده ممسكا كأسه وهز رأسه بالرفض بينما استند

ستيليو بظهره الى حائط الشرفة والقلق يتراقص في عينيه وتحدوه الرغبة لأن يبذر العمل على قماش الرسم ويقول لنفسه . [إنها فتاة جذابة كأي فتاة ايطالية . ولاحظ ضوء البحر وهو يبعث أشعته على الشرفة ، في هذه اللحظة من وقت الزصيل . قال :

« هل تأذن لي يا سنيور بأن أرسم الصورة هنا في الشرفة . أحس أن السماء والجبال تمثلان أروع خلفية لصورة رافينا ! » .

تطلع مارك بعينيه الى رافينا وقال :

« يعجبني ثوبك يا رافينا . هل يمكنك ارتداؤه عند رسم صورتك ؟ » .

« كما تشاء يا مارك » .

قال ستيليو مقترحا : « وشعرها مسترسل وقد تطاير قليلا في مهب الريح »

راحت رافينا تراقب الشمس وهي تحترق في الأفق ، وبعد قليل اقترحت الدخول الى البيت فقد أحست بالبرودة تشيع في الجو .. قال ستيليو :

« لا شك أنك تعرضت لرياح الجبل بعدما غابت الشمس » .

قالت رافينا : « هناك نار في مدفأة الصالون » .

حملت رافينا الظبي وساروا جميعا الى الداخل وكانت ترجو ألا تشاركهم دوناجوكاستا طعام العشاء وتحققت أمنيتها وأقبلت بابتيستا وقدمت ورقة لمارك ثم غادرت المكان ، قرأها بتجهم ثم ألقى بها في النار ، وسأل رافينا وضيفه أن يسمحا له بالانصراف لعدة دقائق . وخيم الصمت على الصالون لمدة وجيزة قطعه صوت تكسر الخشب المحترق في المدفأة . سألها ستيليو :

« كيف تسير أمورك مع البادرونا العجوز ؟ » .

نظرت اليه رافينا بتأمل وقالت : « انها لا تسير سيرا طيبا . أصيبت بخيبة أمل عندما تزوج مارك بأجنبية ، أظن أنها كانت تعبد دوناتا وهي دائما تعقد مقارنة بيني وبينها » .

قال ستيليو بهدوء : « ليست هناك أية مقارنة » .

ركعت رافينا على ركبتيها فوق السجادة ومدت يدها تلتمس الدفء من نار المدفأة وقالت : « أعرف ذلك . كانت دوناتا جميلة كما أنها كانت تتمتع بكل أسباب الكياسه » .

ساعدها ستيليو على الوقوف على قدميها وراح يتأملها على ضوء اللهب

ثم قال لها : « لكنك تتمتعين بجمال الروح يا رافينا في كمال المقياس ولديك جمال الجسم » .

قالت : « ستيليو ش .

وجذبت نفسها من يديه مذعورة . كانت تخشى ظهور مارك المفاجيء فيراها على مقربة من الفنان المليح الوجه وأردفت تقول :

« أريد أن نكون أصدقاء ومن المستحيل أن تتفوه بمثل هذه العبارات التي لا يحبها مارك » .

قال بهمس : « هل أتظاهر بعدم وجود أمس ، فيه رأيتك أسعد حالا من اليوم ؟ هل تشعرين بالسعادة عندما يغيب زوجك عن البيت ؟ » . وأحست أنه يطرق الحقيقة فقالت له : « ليس من حقك أن تقول أشياء مثل هذه . لقد سألك مارك أن ترسم لي صورة لا أن تقوم بدور محلل نفساني لي » .

« الفنان يتعلم قراءة لغة العيون ، والعيون نافذة تطل على الروح . كم تمنيت أن تكون دروبا التقت قبل أن يطرق مارك باب حياتك . أظن يا مادونا أننا ، أنت وأنا كنا سنعثر على السيء الكثير الذي نستمتع به سويا » .

قالت بحزم : « أعتقد أنك تجاوزت حدود كرم مارك أنا لست واحدة من زبائنك التي تستهويها مغازلة فنان مليح الوجه مثلك وأظن أنه من الأفضل أن نلغي جلساتنا » .

قال بهدوء : « أظن أنك ستندمين » .

« أندم ؟ ماذا تقصد ؟ » .

« أعتقد أنك بحاجة الى صديق ، ولم أفترض أبدا أنك تشبهين واحدة من النساء الأخريات اللواتي جلسن أمامي . أن سعادتهن تبلغ درجة عالية عندما يقوم فابريزي برسم صورة لهن ، ومغازلتي لهن ترضي غرورهن . أما أنت فشخصية مختلفة تماما . أنا معجب بك وأريد أن أرسم صورتك لأنك صورة للتحدي ، وأدهشني كثيرا عندما أسائل نفسي هل في وسعي أن أنقل الى القماش هذا السحر الذي أراه في عينيك ، وجوهر الحزن الذي يشوبهما وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وأنت شابة تعيش مع زوجها ويشاركهما الحياة شبح امرأة أخرى » .

وتطلع كل واحد منهما الى الاخر حينما فجأة توهج لهيب النار وكشف لها الحقيقة واضحة فحاولت رافينا أن تبدو مثل المضيفة الفخورة ببيتها . قالت

له : « هذه الغرفة جميلة أليس كذلك ؟ » .

وراحا يتبادلان الرأي حول النقوش المرسومة على السقف ، عندما رأت مارك يقبل عليها ، وشاهدت مسحة من التجهم ترتسم على جبينه وأدركت أن دونا جوكاستا بعثت الضيق في نفسه ولكنه سرعان ما تخلص من مزاجه المنحرف ، وبدا جذابا وهم يتناولون الطعام ، وحاول أن يذكر رافينا كيف استطاع أن يجذب اليه جاردي عندما كانا يتناولان الطعام في رافنهول ، وراح يسرد عليهما قصصا طريفة أشاعت في نفسها الضحك ، وجعلتها تنسى ندوبه المخيفة فبدا لها ساحرا . أخذت رافينا تعبث بأصبعها فوق حافة الكأس ، ولاح لها أن هذه الغرفة الكئيبة لم تشهد منذ فترة طويلة ضحكات مجلجلة كما تشهد الان ستيليو وهو يضحك بمرح . كان في ضحكه جذابا تتلألأ أسنانه وسط بشرته الايطالية وعليها أن تكون حريصة في الأيام المقبلة على ألا تظهر اعجابها للرجل الذي ستمضي معه في الشرفة أصيل كل يوم . استعد ستيليو للرحيل فقالت له رافينا :

« احضر معك تيو سيفتقدك كثيرا بحضورك وحدك هنا » .

وجه ستيليو حديثه لمارك قائلا : « زوجتك يا سنيور تتمتع بقلب حنون . انها تفكر أيضا في كلبي الصغير . سأحضره معي أحيانا ، بعد ذلك » .

قال مارك : « طبعا » .

ثم وضع يده حول خصر رافينا وسقط نور مصابيح الباب فوقهما بينما كان ستيليو يستعد للجلوس وراء عجلة القيادة فالتفت اليهما وقال : « وداعا »

وكان الليل ينبض بالحياة ، بصوت محرك سيارته ولكن الصمت خيم على الكون بعد رحيله كان الليل ساكنا الا من همس خافت يجوب بين أشجار السرو . ووميض خفيف ينبعث من الزهور الغامضة التي تتبدل من اللون الزرزق الى اللون الأبيض ، عندما يرخي الليل سدوله .

تمتم مارك قائلا : « الزهور مثل أفكارنا تتغير مع مجيء الليل أنت صامتة يا رافينا وهذا يدعوني الى معرفة أفكارك » .

قالت : « أنا .. أنا أرجو أن تكون الأمور قد استقرت في المصنع » .

« أجل .. انتهينا من موضوع الآله الجديدة . بعض العمال يشكون من الالات الحديثة . ألم زقل لك أن أهالي سردينيا يتمسكون دائما بالأساليب القديمة ؟ » .

أصاب رافينا التوتر عندما شعرت بيده تتلمس شعرها ، فقالت :
« مارك .. أرجو ألا يكون قد نشب جدال بينك وبين جدتك ! » .
أجابها ضاحكا : « هل تتصورين أننا لم نتبادل الكلمات من قبل ، إننا نتميز بالعزيمة القوية ، وبالطبع لابد من الجدال ، كل منا مولع بالآخر وسرعان ما ننسى ونغفر . أخبرتها بأن سنيور فابريزي سيأتي الى هنا كل يوم ليقوم برسمك فاتهمتني بالحماقة وسألتني أن أعهد برسمك الى فنان أقل شبابا وجاذبية من ستيليو » .

وبحركة سريعة أدار جسم رافينا حتى واجهته وأحاط خصرها بذراعيه وقال « إن شرف بيت السردي يقوم على طريقة محافظته على زوجته » .
قالت : « لم زجد مشقة في فهمك ولكن ماذا تفعل لو أنني خنتك هذا اذا اكتشفت الأمر بنفسك ؟ » .
وتلألأ نور المصباح في عينيه السوداوين وهما تتطلعان الى عينيها ورأت في أغوارهما شيئا يخيفه ، قال بهدوء :
« اذا تجاوز رجل حدوده معك سأحطمه سيفقد كل شيء ثمين لديه » .

تطلعت رافينا الى وجه مارك ورأت نور المصباح يكشف الندوب الغثرة على صفحته والقسوة في كلماته ، فتراجعت الى الوراء وأحست ببرودة تهز كيانها وخضرة عينيها تخفق عبر رموشها . سألته :
« هل ندخل البيت ؟ » .
قال : « أجل » .
دخلا البيت وأوصد الباب الكبير وراءه ثم أمسك بيدها وسارا عبر الصالة التي تؤدي الى السلم فأحست بيده دافئة وقوية وهما يرتقيان الدرجات ، وتذكرت الليلة التي حملها فيها مارك الى برج القوس والغضب يموج في أعماقه ، أما هذه الليلة فإن مزاجه يبدو أرق وهو ممسك بيدها ، كأنه يخشى أن تهرب منه .

* * *

٦ ـ أدونيس جواد أسود

وعد مارك رافينا أن يقدم لها جوادا يكون ملكا لها تمتطيه وقتما تشاء ، واختار لها مهرا أغبر ، أبوه ذو فحولة يركض بجنون عبر تلال سردينيا وكان المهر رقيقا ، استطاع أن يربط أواصر الصداقة بينه وبين رافينا . وكان زدونيس الأسود هو الجواد المفضل عند مارك ، وذات صباح هبطت رافينا الى الاسطبلات لتلهو مع المهر ، وعلمت من صبي السائس أن أدونيس قد ألقى بصاحبه السابق زرضا ، ووطأه بحوافره . قال الصبي موضحا :
« أدونيس يحب ألا يضربه أحد بالسوط . ومارك لا يحمل أي سوط ، ولهذا كان الجواد زليفا معه » .
وقفت رافينا على بال حظيرة أدونيس تحمل قطعة من السكر في راحتها وأشاح الجواد بأنفه ورفض أن يقبل الرشوه من شخص مازال غريبا عنه . ضحكت رافينا وقالت :
« أيها الشيطان المتنكر ، لشد ما أتساءل أي شخص تريد أن يمتطيك ؟ »
عندما كانت رافينا قاصرا تعيش تحت وصاية واحد من الفرسان كانت تستمتع بركوب الخيل وهي مازالت شابة صغيرة ، تعلمته هي وورودري حتى زتقنته وأصبحت الآن تمسك بمقود الجواد وتقوده وهي ثابتة الجنان فوق السرج فاستحقت أن تكون فارسة ممتازة ونالت اعجاب مارك عندما رآها تمتطي برشاقة فوهبها المهر كدليل على تقديره لطريقتها في ركوب الخيل و أدركت أن زوجها سرديني لا يعبر عن اطرائه بالكلمات وانما هو رجل عملي .
وبينما هي واقفة تتأمل أدونيس بإعجاب تناهى الى سمعها وقع حذاد يعبر فناء الاسطبل فاستدارت لترى مارك يرتدي سروال ركوب الخيل و قميصا أبيض اللون جعله يبدو أكثر شبابا ورياضيا في لباس الفرسان . وفي الحقيقة لم

تعرف رافينا رجلا سليم البنيان دؤوبا مثل زوجها ، فهو يمضي ساعات طويلة يتفقد أعماله ويعكف في مكتبه على دراسة أوراقه الهامة حتى ساعات متأخرة ، كما أنه يعمل على إنجاز شؤونه المحلية بنشاط ملحوظ . ابتسمت وهي تشعر بالخجل يعتصر قلبها ثم قالت :

« صباح الخير أحاول أن أكسب صداقة أدونيس ولكنه يبدو خجلا مني »

« أرجو ألا تكوني حاولت دخول حظيرته ، لقد أسيئت معاملته مرة فأصبح يشك في أغلب الناس » .

قالت : « أكره التفكير في أن يكون أحد ألم مثل هذا الحيوان المتكبر » .

ارتسمت ابتسامة على شفتي مارك وهو يدلف الى حظيرة أدونيس فناولته رافينا السكر الذي التهمه الجواد وهو يدفع عنقه في كتف مارك ثم وضع السراج على متنه واللجام في فمه وزدركت تماما مدى التفاهم بينهما . انهما يقتسمان ألم الذكرى السوداء ويشتركان في الخطر الداهم الذي يتعرض له المرء اذا ما راودته فكرة الاقتراب منهما .

ثم سمعت وقع حوافر مهرها على أرض الاسطبل بعد خروجه من حظيرته وقد أعد السرج على ظهره استعدادا لرياضة الصباح فأسرعت الى امتطائه وتألقت شمس الشروق فوق شعرها الذهبي وسرح المهر الذي انتصبت زذناه واهتز لجامه وكزنه يقول لراكبته [هيا بنا .. دعينا ننطلق] .

استدارت لترى ما اذا كان مارك امتطى جواده فتبينت أنه استقر فوق ظهر الحصان وأرخى حافة القبعة فوق وجهه الزسمر وغادرا فناد الاسطبل وانطلقا الى رحاب الريف . وزحست رافينا بالحرية وهى تركض بجوادها عبر الزرض الشاسعة رغم وجود مارك الى جوارها ، هناك سحر يكسو الكون في رازحة العشب وقطرات الندى التي تتزلق فوق عيدان الحشائش وسيقان الزشجار الشوكية وبعد قليل سوف تستنزف الشمس بيد حانية الألوان من الحشائش والزهور البرية .

كان قلب رافينا يشدو بأغنية غريبة ، نصفها مرح ونصفها الاخر دهشة اذ أحست أنها قريبة من دنيا السعادة وخيل اليها أن الريح تلهب سياطها فوق شعرها فانطلقت بجوادها تسابق مارك على أرضه التي يعرف فيها كل شبر ، وكل صخرة وكل شجرة زيتون . وسألت نفسها : هل تريد الهروب منه ؟ والتفتت تنظر اليه فرزت ابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء وسط وجهه

الأسمر ، وقد كبح جواده عن المضي في الجري تاركا اياها تعتقد أن في وسعها الهرب منه واندفعت قبعته لتسقط وراء رقبته فبدا لها في صورة قاطع طريق يتعقب خطاها ، وتولتها رعدة من الخوف سرت في أوصالها ، رعدة دفعتها الى أن تحث مهرها على الاسراع وتشبثت ركبتاها بالسرج وهو يتخذ طريقه الى غابة الصنوبر الكثيفة وعندما تناهى الى سمعها صوت الحصى وهو يتناثر تحتوطأة حوافر أدونيس ، كان المهر قد بلغ الممر الطحلبي المؤدي الى داخل الغابة ، ثم شمت رائحة الراتنغ الصمغية المنبعثة من الأشجار ويبدو أنها خدرتها هي ومهرها . وحينما بلغت رافينا موقع جدول يتدفق فيه الماء عبر الغابة توقف المهر فجأة فاهتز جسمها فوق السرج وانتابها دوار وتقطعت أنفاسها ولفتها ظلال أشجار الصنوبر ونظرت حولها فرأت مارك في محاذاتها .

قالت لاهثة : « هذا .. هذا الماء ، أهو صالح للشرب يا مارك ؟ » .

قال : س رنه يتدفق من الجبال عذبا صافيا » .

رمقته بنظرة سريعة ثم انزلقت بجسمها من فوق السرج وأسرعت تركع فوق ضفة الجدول واستخدمت راحتيها لتبهل بهما الماء وكان باردا كزنه مثلج ، وطفقت تستعذبه وهو يجري لذيذا عبر حلقها . سألت مارك وهو يترجل من فوق حصانه ويسند ظهره الى شجرة صنوبر ك « ألا تشعر بالظمأ ؟ » .

قال : « في وسعي أن أحتسي قليلا من القهوة » .

وشعرت أنه يتطلع اليها وهي جالسة على حافة الجدول تجفف يديها ، ثم زردف يقول : « أتحبين الذهاب الى مطعم صغير أعرفه حيث نتناول طعام الافطار ؟ انهم يصطادون السردين مباشرة من البحر ويعدونه مشويا أو محشو بالخضرة » .

قالت ك « أنا جائعة . إن ركوب الخيل يفتح شهيتي » .

« أنت تحبين ركوب الخيل .. أليس كذلك يا رافينا ؟ » .

قالت : « لم أمتط جوادا رائعا مثل هذا المهر » .

ورمقت المهر بشغف ثم أردفت تقول :

« أحب رائحة الصنوبر أنها نقية منعشة طلقة مثل ركوب الخيل السريع عبر الريح والماد البارد وكل شيء له لذعة قارصة » .

وتطلعت الى مارك ورزت لمعان أسنانه وعلى شفتيه ابتسامه ، وأدركت أنهما وحدهما . إنه زوجها ومع ذلك هو الشخص الوحيد الذي يسشتطيع أن

يدغدغ أعصابها وقد بدا جسمه واضحا لها . إنه عريض المنكبين وتتراقص الرغبة تحت قميصه الأبيض وأطرافه طويلة وأضاف حذاؤه الذي يصل الى ركبتيه سمة القوة الى هيئته وكان لابد لها أن تمر بجواره كي تصل الى مهرها فأخذ قلبها يدق وهي تنهض واقفة واتخذت سبيلها نحوه .

مد يده في تراخ وجذبها نحوه ونفذت يده الآخرى في أغوار شعرها المتطاير . وفجأة اشتدت قبضته عليها وهو يتحدث اليها :

« قبلتك تبدو وكأن الثلج يسري في عروقك بينما تبدو النار في نظرة عينيك . ما من مرة يا رافينا خلال الاسابيع التي أمضيناها سويا شعرت بالدفء في قلبك » .

قالت والبرودة تشوب نبرة صوتها :

« منحتك كل ما يمكن أن أعطيك إياه . اذا كنت تريد الحب يا مارك كان الاحرى بك ألا تجبرني على الزواج منك » .

سألها وفي صوته نبرة سخرية :

« هل كنت تصيخين السمع لي لو غازلتك بالطريقة التقليدية ؟ ماذا كان تفكيرك عندما التقينا لأول مرة ؟ » .

زحست بنبضات قلبها تخفق قريبا من قلبه وزدركت زنه يشعر بهذه الدقات المجنونة حينما قالت له : « كنت أرجو أن تذهب بلا عودة » .

لمس وجهها وراح يتحسس العظام الرقيقة أسفل بشرتها الناعمة وسألها :

« كأن الشيطان قام بزيارتك أليس كذلك ؟ هل كنت زبدو شيطانا أمامك يا رافينا ؟ هل بعثت الشقاء في نفسك ؟ منذ لحظة وجيزة كانت عيناك تتزلقان ؟ » .

قالت : « أنا .. أنا أحب أن أمتطي مهري . من الأفضل أن تعطيني جوادا ، أستطيع أن أمتطيه جيدا » .

« لابد أنك تعلمت ركوب الخيل منذ طفولتك » .

س أجل .. جاردي كان دائما يعاملني وكزنني ابنته ، وما تعلمه رودري لم يكن ضنينا علي به . ذهبنا سويا الى مدرسة تعلم ركوب الخيل » .

« هل عشتما مع بعضكما البعض فترة / » .

وتطلعت اليه ، ولمحت القسوة في عينيه وقالت له :

« كما أخبرتك من قبل يا مارك إنني لا أستطيع أن أمحو ذكرى رودري

من عقلي كما عرفته كان مرحا ، أنيقا في زيه العسكري وجذابا » .

قال مارك بنبرة مريرة متسائلا :

« جذابا ؟ هيا بنا ودعينا نتناول طعام الافطار » .

وقاما بامتطاء الجوادين ووقفا عائدين من غابة الصنوبر .وكانت الشمس دافئة وهما يمضيان في الممر المودي الى الفندق الصغير القائم فوق التل المطل على الشاطيء ، وكانت جدرانه الخشبية بيضاد وسطحه منحدرا قليلا وله حديقة تناثرت فيها أشجار الكروم والجميز وشجرة توت كبيرة صفت الموائد تحت أغصانها . قادهما شاب خجول الى احدى الموائد وكان يتحدث بانكليزيك مكسرة سريع الحركة أطاح الملاحة وهو يفرد الفوطة ويضعها على حجر رافينا وقال : « أجل .. أجل يا سيدي .. سيزتي السردين طازجا من البحر مباشرة » . وظهرت في الحديقة شابة حافية القدمين ترتدي ثوبا قرمزي اللون ، وتحمل فوق كتفها سلة مملوءة بالسمك ، منحت مارك ابتسامة سريعة ورمقت رافينا بفضول ثم قالت :

« صباح الخير يا سيدي ، هل زتيت لتتناول السردين المشوي ، كما كنت تفعل فى الأيام الخوالي ؟ » .

« أجل يا سانتوزا . أحضرت زوجتى لتأكل ألذ طعام افطار موجود في كل سردينيا » .

قالت سانتوزا : « لطيف منك أن تقول لي يا سنيور » .

ومنحته الشابة انحناءة احترام وأدهش رافينا جرأتها ونظراتها الضاحكة وقد أضافت بلوزتها الزرقاء وتنورتها القرمزية الحيوية لشبابها كما لاحظت أنها تنظر الى مارك وكأن بينهما صداقة قديمة . حملت سانتوزا السلة الى الفندق وطلب مارك كوبين من اللبن ليحتسياه حتى الانتهاء من طهي السمك ، وأتت سيدة عجوز بالكوبين وكانت ترتدي وشاحا أسود اللون فوق رأسها شأنها في ذلك شأن كل جيلها المسن . قالت بالنكليزية :

« أتذكر يا سيدي عندما كنت تحضر معك ابنك ، هذا الصقر الصغير الشقي ليحتسي لبننا » . ... ثم أضافت بالايطالية :

« كوزي ايستا لافيتا » .

ثم طفقت تجوب بنظراتها لتتأمل رافينا فزدهشها لون شعرها الأحمر وبشرتها البيضاء وأردفت تقول بالانكليزية :

« إنها قطعة رائعة الجمال ، لابد أنها تدير رأس أي رجل ولكن من الأفضل أن تقترن بواحدة منا » .

وراحت تتمتم وهي تغادر المكان وتركت ورادها رافينا مشدوهة وسألت مارك : « إنها تعني .. هكذا هي الحياة ! » .

وكأن الكلمات التي تفوهت بها العجوز أعادت الزمن القهقري وتذكر مارك بوضوح عدد المرات التي جاد فيها الى الفندق بصحبة فتاته ذات الشعر الأسود لتتناول معه طعام الافطار وبعد مدة كان يأتي معهما ابنهما الصغير .. الصقر الصغير الشقي . احتست رافينا رشفة من اللبن وراحت تبحث عن شيء تقوله ، أوه ، لماذا أتى مارك بها الى هنا ؟ لماذا ... وهذا المكان يحمل ظلالا من الذكريات وقد يحدث أن يسمع ضحكات طفل توارى وراء أشجار الكروم والجميز . قالت : « مارك » .

ولكنه قاطعها قائلا : « كل شيء على مايرام يا رافينا . أشكرك على تلك النظرة التي تجول في عينيك .. الشفقة من زجل الطفل . كان يحلو له المجيء الى هنا والاختباء وراء الأشجار ورش الماء من النافورة العتيقة ، ولكن الذكريات لايمكن محوها كما تقولين ، كما أنه لايمكن الاختباء منها . هاهي ناتالينا تأتي بالسردين » .

أقبلت رافينا على الطعام بشهية وهي تقول :

«لم أذق في حياتي مثل هذا السردين اللذيذ والخبز مازال دافئا خرج لتوه من الفرن والزبدة تسيح من شريحته » .

قال مارك : « يبدو منظرك كالتلميذة الجائعة » .

حقا كانت رافينا بشعرها المتطاير وقميصها المفتوح وهي ممسكة بقطعة الخبز المدهون بالزبدة لاتكاد تبدو أنها زوجة ولا يؤكد زواجها شيء سوى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى ، وأدركت أن مارك يعقد مقارنة بينها وبين دوناتا . لابد أنها كانت هادئة وفاتنة ورشيقة وشعرها الأسود ناعما وعيناها على استعداد لأن تهبه ابتسامة خلابة وصوتها الناعم فيه سحر وإغراء .

مسحت رافينا شفتيها ولاريب أنها كتمت الصرخة التي ندت من قلبها ، لقد عرف مارك الحب ولكنه حرمها الفرحة الممتعة لهذه العاطفة كل ما لديه هو الرغبة فقط . « سألها : « ماذا تريدين الآن أيتها العروس ؟ هل ترغبين مشاركتي تناول فاكهة بيرسيفون ؟ » .

راحت تراقبه وهو يقطع الفاكهة مناصفة ورأت العصير يجري فوق يده التي كستها الندوب ، وأردف يسألها : « هل تعرفين أسطورة بيرسيفون ؟ » .

التهمت رافينا قطعة من الفاكهة اللذيذة وقالت :

س التقى بها أدونيس مصادفة وهي تقطف الزهور وحملها معه الى قصره . هل تسمح لي بعد مضى ستة أشهر أن أعود الى عالمي مرة أخرى » .

تطلع اليها مارك وقال : « اذا كنت ترغبين في رؤية جاردي لن أقف دونك ! أما اذا كنت ترغبين في رؤية رودري الجذاب فهذا شيء آخر ! » .

« أرجوك .. هل من المحتم أن يدور حديثنا عنه ؟ » .

قفزت رافينا واقفة على قدميها وطفقت تتجول بين أشجار الجميز والكروم . وكانت عناقيد العنب صغيرة ومرة وعثرت على عريشة تظلل مقعدا صغيرا من الحديد . جلست عليه وأخذت زصابعها تلوي بعنف منديلها ، ولم ترفع رزسها حينما أظلم المدخل بجسم مارك الفارع . قال :

« يجب أن نعود الى البيت » .

وتذكرت بيتها في وطنها ، وتواردت الصور على عقلها عندما فكرت في العودة الى بيتها ، الى غرفتها في رافنهول ، بنافذتها الدائرية وشرفتها الممتدة وكتبها وخلوتها التي تطمئن اليها في أحضان الجدران البيضاء .

قال لها : « تعالي » .

وشعرت أنها وقعت في شرك ولاسبيل لها للخروج من العريشة الا الوقوع في أحضانه فصرخت قائلة :

« أكرهك لن زشعر بشيء سوى الكراهية نحوك ونحو القلعة والريح التي تهز أشجار السرو . إنها تبكي في الليل لاشيء سوى النحيب في الكازا سيبرنيسو ! هل شعر هذا البيت يوما بالسعادة ؟ » .

قال لها : « مازلت صغيرة » .

وجذبها نحوه ، ولما حاولت أن تنفلت هاربة من بين يديه شعرت بقوته تجذبها ثانية فقالت له : « أنت تحب أن تثبت لي أنني لا أستطيع الفرار منك . هذا ما تحبه .. أليس كذلك ؟ » .

ضحك بمرح وجذب وجهها نحوه وتمتم : « عيناك خضراوان وثائرتان » أشاحت بوجهها وهي تقول : « لا تفعل ... » .

وكانت تدرك أنه يحاول تقبيلها فضحك ثانية وجرت يده التي تكسوها

الندوب على طول شعرها الزحمر وقال : « هيا بنا نعود » .

وصل ستيليو عقب الغذاء ليواصل رسم صورة رافينا ولكنه بعد مضي ساعة ألقى بفرشاته وخطا تجاه المائدة ليحتسي كوبا من عصير الاناناس المثلج الذي يحبه ثم قال بتجهم :

« إنني أتحدى يدي اليوم . هل ترغبين في كوب من العصير ؟ » .

هزت رزسها وهي تسترخي على سور الشرفة وقد تبين لهما أن الظبي لن يظل هادئا أثناء الرسم لذلك فضل ستيليو أن يرسمها وحدها بجوار السور وساعده ذلك على مواصلة عمله . ألقى عليها نظرة فاحصة طويلة وسألها :

« ماذا يزعجك ؟ غدوت غريبة على الابتسامة . إنني أصر على أن ترسم ابتسامة الموناليزا على شفتيك وأنا أرسم صورتك » .

قالت : « المرء لا يستطيع دائما الابتسام ، إنني .. إنني أشكو من صداع خفيف » .

سار نحوها بقميصه الازرق الشاحب وتطلع اليها بعينين تتلزلز فيهما أضواء كهرمانية اللون وسألها :

« هل أنت صادقة معي ؟ ربما يكون قلبك يسبب لك المسا ؟ » .

أجفلت رافينا لنفاذ بصيرته ورأت أن عليها أن تكون حريصة مع ستيليو فهو شخص جذاب وعطوف ، وفي هذه اللحظة أحست أنها في حاجة الى قليل من هذا الحنان والى كتف تريح رأسها عليه لمجرد لحظات قليلة ، ولم تحتمل نظرات الغواية التي تتلألأ في عينيه فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وشخصت ببصرها نحو الجبال ، ومياه البحر التي تجري تحت البيت ، وكانت تنبض مثل نبض قلبها في موجات متتالية وكان الجو مشبعا بالحرارة وكأن عاصفة تنذر بالقدوم .

قالت : « الجو ثقيل يدفعني الى القلق » .

اقترب ستيليو منها وقال : « إنها الرياح الشرقية الحارة التي تهب من أفريقيا ، وهي تثير أعصاب أيشخص غريب » .

قالت بحدة : « كفى .. يا ستيليو » .

« أريد أن أقول إنها أثارت أعصابها خلال الساعة الماضية . أنت تعيسة يا رافينا وأنا أعرف السبب » .

ورسمت ابتسامة على شفتيها وهي تنظر اليه ثم قالت :

« لا تستطيع أن تعرف السبب بسهولة . أرجوك يا ستيليو إصطحبني في جولة بالسيارة » .

قال والأضواء الكهرمانية تحترق في عينيه :

« على الرحب والسعة ولكن ماذا عن زوجك ؟ » .

« إن مارك في اجتماع مع صانعي الشراب ولن يعود قبل ساعات وأنا أريد أن أشعر بالريح تلفح وجهي » .

قال : « إذن هيا بنا » .

أمسك ستيليو بيدها ومثل أطفال المدارس انطلقا يهبطان درجات السلم ويخترقان الصالة ويغادران باب البيت . ولم يلحظ زحدهما السيدة ذات الرداء الأسود وهي تتلصص عليهما ، واقفة في الرواق بنظرات تومض ومضا سريعا ثم هرعت لتفضي لسيدتها بأن البادرونسيتا انطلقت تجري من البيت يحدوها مرح القبرة وهي ممسكج بيد الرسام الايطالي . وكان لون سيارته لوتس رماديا . وأخذت تسابق الريح عبر الطرقات التي تخترق الجبل وفي كل منحني كانت زافينا تمسك زنفاسها وتشعر أنها تطير في الهواء ، ولن تفكر في ركوبها مرة ثانية ، أما الآن فهي ترغب في أن تمتع نفسها وكان ستيليو يهلل كلما لفحته نسمات الهواء ويقول لها : « إنها منعشة أليس كذلك ؟ » .

ضحكت قائلة :

« إنها رائعة ، من الأفضل لك أن تكون سائقا لسيارات السباق » .

قذفها بابتسامة سرسعة وقال : « إن الريح تلسع شعرك بالسيط . مارأيك يا رافينا أن نتوجه الى الساحل .. » .

« لا ... لا ... إنه بعيد » .

« ليست المسافة بعيدة وأنت تركبين لوتي ، في وسعي أن أقدم لك شرابا مثلجا في مسكني ، وسأعود بك في الساعة السادسة . هل أنت خائفة ؟ » .

قالت ساخرة : « منك .. ؟ » .

« لا .. وإنما من زوجك » .

ويبدو أن شيئا اعتصر قلبها ودفعها الشعور بالخوف من مارك الى التمرد فقالت بلا اكتراث : « يمكنك أن تقدم لي شرابا باردا . انتظر ... دعني أفكر ثانية » .

قاطعها ضاحكا : « أفلت الأمر من يديك . لقد بلغنا الطريق المؤدي الى

الساحل ! » .

« كنت أود أن أقول لك إنني أفضل احتساء عصير البرتقال » .

وأخذت السيارة تطوي الطريق الناعم المحاذي للشاطيء وانقضت فترة قبل أن يرخي الخوف أصابعه التي أنشبت أظافرها بصدر رافينا . كانت تدرك أنها ترتكب جرما تجاه مارك وقررت أن تخفي عنه زيارتها لفيلا ستيليو،ما يجهاه مارك لا يتسبب في قلقه .. أخيرا وقفت السيارة أمام فيلا رائعة الجمال ، تقع في ميدان يضم عددا من المنازل الفاخرة ورأت سلما زبيض اللون عربي التصميم يؤدي الى الشرفة . كان المنزل يبعث على الشعور بالبهجة والمكان يناسب حقا فنانا غير متأهل . ووضع ستيليو مرفقة على عجلة القيادة وسألها :

« حسنا .. هل تدخلين الفيلا ؟ » .

قالت : « كيف لي أن أقاوم ؟ » .

وانزلقت تغادر السيارة واستدار هو من الجانب الاخر لينضم اليها ، وارتقيا السلم المؤدي الى الشرفة وفتح الباب ودخلا غرفة واسعة وباردة مليئة وأريكة هلالية الشكل مكسوة بالقطيفة وبعض الزخارف النحاسية ودولاب للشراب فارسي التصميم ولوحات ايطالية تزين الجدران وولاعة على شكل بجعه فوق منضدة صغيرة .

قالت رافينا بابتسامة : « أنت مترف » .

نظراليها بجسارة وقال : « كنت شابا محروما . ذقت الفقر والحرمان في مطلع حياتي . اجلسي من فضلك وسوف زسكب لك شيئا » .

قالت بخفة : « أريد أن أحتسي عصير البرتقال » .

ثم جلست في أحد المقاعد الوثيرة وامتزج لون فستانها الأصفر بلون قماش القطيفة البرتقالي الذي يكسو المقاعد ، ووضعت يدها على شعرها لتسوية خصلاته ، وألقى ستيليو نظرة عليها قبل أن يتوجه الى دولاب الشراب وفتح زحد مصراعيه وقال « لم يعد عندي عصير البرتقال ..ألا تثقين بي ؟ » .

قالت : « أفضل أن أحتسي مقويا ممزوجا بالثلج » .

تطلعت الى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى ثم تفرست في ستيليو وسألته : « هل تعيش وحدك هنا يا ستيليو ؟ » .

« أجل ألا تشعرين بالأسف لي . هناك سيدة تأتي لتنظيف البيت وتلميعه وتقوم بطهي الطعام اذا دعوت بعض الضيوف ، ولكنني اعتدت أن أتناول

عشائي في المطعم » .

قدم لها الشراب الممزوج بالمقوي في كأس على شكل زهرة التيولب ثم سألته : « دائما وحدك ؟ » .

جلس على الزريكة الهلالية الشكل ومد ساقيه حتى تقاطعا ورفع كأسه بيده وقال لها : « في صحتك ! ان الرجل يعتاد على الوحده ولكن يوجد علاج واحد لها . في أي حال هل أبدو لك أنني من النوع الذي يستطيع أن يعيش حياة الرهبان ؟ » .

ابتسمت وهزت رأسها وقالت : « كنت دائما أعتقد بأن الايطاليين يتزوجون في سن مبكرة ليكون لديهم عائلات كبيرة » .

قال : « لكل قاعدة شواذ ، خذي نفسك مثلا أنت فتاة جميلة .. وتتزوج ضد رغبتها » .

تجمدت الابتسامة على شفتيها وقالت :

« ما جئت الى هنا لنتحدث عن زواجي وانما أتيت ..» .

قاطعها قائلا : « لتنسيه فترة . لاداعي للتظاهر معي ، رأيتك على حقيقتك وزنا أقوم برسم صورتك ، وكيف يبدو شكلك عندما ينضم مارك دي كورزيو الينا ونحن على الشرفة في الكازا ، كأن الضوء يهرب من عينيك وكأنك تتخلين عن نفسك » .

وضعت كزسها على المنضدة وقفزت واقفة على قدميها وقالت :

« كفى ، ماجئت الى هنا لتقوم بتحليل زواجي أو مناقشة مشاعري الشخصية ، ليس هذا من شأنك » .

قال : « هل تظنين ذلك ؟ » .

ثم وقف بدوره ورأت سمة الجدية في نظراته ثم أردف يقول :

« التقينا على الشاصيء وكنت جذابة والتقيت بك ثانية في بيت دي كورزيو ورأيت فيك فتاة تختلف تماما عن تلك الفتاة التي توجهت معي الى الكهف . في كل يوم منذ التقينا وأنا أحاول أن أنقل الأضواء الضاحكة التي تتلألأ في عينيك الى اللوحة لكن هذا مستحيل ! انها لم تعد هناك شيء غامض يحاول أن يقمعها ! » . وتجرع بقية الشراب ثم استطرد يقول :

« سيدتي هل تتصورين إنني أحمق ؟ هل تظنين أنني خبرت هذه الدنيا قليلا فلا أدرك حقيقة المرأة التعسة عندما يقع بصري عليها ؟ » .

« وهل تظن أنني جئت الى هنا لتقدم لي العزاء ؟ وهل هذا هو الأسلوب الذي يستجيب به زبائنك التعسا اليسحرك ؟ » .

قال لها : « لكنك صرحت لي بأنك تعسة ؟ » .

وقام ليتناول سيكارة ثم توجه ليغلق الأبواب الزجاجية التي كانت تسمح بدخول نسمة حارة جعلت رافينا تلهث أنفاسها ، ولما عاد وقف الى جوار كتفها ، شعرت بالتوتر ولم يكن سبب توترها خوفها من دافع غريزي منه وانما كانت تشعر بنوع من الود يصيفه عليها ، والحنان يعتبر أخطر عاطفة عندما تكون المرأة في حاجة اليه .

قالت : « كل شيء يسوده الهدوء حتى جمع الحصاد هدأ والزشجار نسجت خيوطها بزرقة السماء الحارة » .

تمتم قائلا : « كم أحب سماع بلاغة وصفك . لديك سمة تصيب المرء بالهوس لم أجدها من قبل في أي امرأة أخرى » .

« هل عرفت نساء كثيرات يا ستيليو ؟ » .

« أنا في الثانية والثلاثين من عمري وفنان له مكانته لابد أن يتعرف بالناس » .

« أنا أسفة أنك تلقي المتاعب بسبب صورتي وربما تنفض يديك منها قريبا » .

« يجب أن أتخلى عنك لأتخلى عن الرسم . لقد فتنت بجمالك يا رافينا ، أرجوك لاتغادري المكان ، انني لن ألمسك ولاأجبرك على أن تشاركيني مشاعري ، أنا أعرف أنك فتاة وفية لزوجك حتى لو لم تشعري بالحب نحوه . ذات يوم .. ربما .. سوف تفضين لي بسبب زواجك منه » .

تولتها رعدة خفيفة ربما كان السبب زمجرة الريح أو وميضا في السماء دفعها الى أن تتراجع عن النوافذ وجعلها تقترب من ستيليو ليصطدما برفق . أغمضت عينيها واندفعت ذكرى جاردي الى عقلها . كان رقيقا وحانيا عليها واعتاد أن يقبلها في وجنتها حين عودتها من المدرسة . ظفرت الدموع من عينيها وانسابت على وجنتيها بينما كانت السحب تبرق خارجا ، وهدير المطر يتدفق من عنان السماء ويتطاير رذاذ منه على زجاج الأبواب المفتوحة فسحبها بعيدا وأظلمت الغرفة وبدا الهواء يهب بعنف . مسحت رافينا وجنتيها المبتلتين وفتحت عينيها تشاهد العاصفة وقالت : « ما كان يجدر بي أن أتي هنا . الى

متي سيدوم هطول المطر ، أرغب في العودة الى البيت يا ستيليو » .

فنظر اليها مأخوذا وقال : « لا أستطيع أن أعود بك في مثل هذا الجو أنت لاتعرفين كم هي سيئة طرق الجبل حينما يكسوها المطر اهدئي وكوني ظريفة إن المطر المنهمر لايدوم طويلا ، وسأعود بك بأسرع ما يمكن » .

راحت رافينا تقطع الغرفة جيئة وذهابا وهي تسائل نفسها : لماذا وافقت على المجيء معه ؟ أدركت أنها أخطأت ووقعت في شراك العاصفة ، ويبدو أن غضب المطر لن يتوقف .

قال لها : « آجلسي » . وسكب لها شرابا طازجا احتسته وشعرت برأسها يسبح بخفة والحرارة تدب في أوصالها وزاد وجيب قلبها . كانت خائفة على نفسها وعلى ستيليو .

قالت : « مارك سيغضب . انني لن أخبره بمجيئي معك الى هنا » .

مال ستيليو نحوها وقال : « ماذا في وسعه أن يفعل ؟ علام يغضب اذا علم بالحقيقة .. بأننا شربنا .. بأننا تحدثنا .. بأننا أصدقاء » .

« من الصعب تعليل هذا التصرف » .

« حاولي يا رافينا .. دعيني أفهم السبب الذي يدفع فتاة مثلك أت تعيش في خوف من رجل . من واجبه أن يشعر بالحب نحوك ، وأن يرغب في اسعادك » .

حاولت أن تبتسم ولكن محاولتها باءت بالفشل .

سألها ستيليو : « ألا تخطئين فتتصورين الحب .. جاذبية » .

قالت متسائلة : « حب ؟ ! » .

وحدقت في المطر المنهمر كأنه سياط تلهب أرضية الشرفة فسارع ستيليو الى غلق االابواب الزجاجية فتوقف تيار الهواء . قالت رافينا في هدوء :

« عندما يوجه القدر حياتك بقسوة يتوقف ايمانك بالحب . لم يطلب مارك مني حبي مطلقا ولم يسألني الزواج منه الا امتثالا لإسلوبه معي » .

أمسك ستيليو بيدها اليسرى وتحسس خاتم زفافها وقال :

« لماذا ؟ ألأنك شعرت بالشفقة نحوه ؟ ألأنك لا تحتملينأن تكوني سببا في إيلام رجل سبق أن لحق به أذى ؟ رافينا إن زواجك منه يعد تضحية ! » .

بدا وجهها في ضوء العاصفة مستغرقا في التفكير وعيناها مثل البرك الموحلة بالطين . أجل انها تضحية ولايمكن انكار هذه الحقيقة ومع هذا فانها

لا تسمح لستيليو أن يعزف على لحن حاجتها الى الحنان ، وعليها أن تحارب هذا الضعف الذي تشعر به في أعماقها وإلا سيصير مصيرها الارتماء في أحضانه .

قالت : « عندما كنت طفلة وكان المطر يحول دون خروجي اعتدت أن أردد أغنية يا مطر .. يا مطر .. ارحل بعيدا ، وعد ثانية في يوم آخر . فهل تظن أن سحري سوف يفلح ؟ » .

قال وأصابعه تقبض على أصابعها :

« أعتقد أن هناك فرصا تتحقق فيها الامنية ولم يحدث أن التقيت شخصا في وسعه أن يلقي بسحره مثلما تفعلين » .

وفي هذه اللحظة ترددت أصداء رنين أجراس الباب في أرجاء الفيلا . وزمجرة الرعد ، وتألق البرق في عيني ستيليو عندما راح كل منهما يحدق في الآخر . كانت عيناه تنذران بهجوم مباغت تردد صداه عبر عيني رافينا .

* * *

٧ ـ ليلة العاصفة

سأل ستيليو متجهما : « من يطرق الباب في مثل هذه العاصفة ؟ » . ونهض واقفا عندما دق الجرس مرة أخرى وأردف يقول :

« لابد أن أجيب على الطارق يا رافينا » .

قالت : « بالطبع » . والتقت عيناهما وراودهما سؤال واحد فهز ستيليو كتفيه في استخفاف وخطا خطوات واسعة وأرهفت رافينا سمعها علها تلتقط صوت الزائر حينما يفتح ستيليو الباب . وشعرت أنها مذنبة فالاتهام الذي سيوجه لها ولستيليو بأنهما عاشقان . وأن مارك جاء سعيا وراءها . وشخصت ببصرها نحو الباب حينما لاح لها شبح طويل بلله المطر وقد وقف عند المدخل وتحققت مخاوفها العميقة .

قال صائحا : « رافينا » .

وكانت قطرات المطر تتساقط من فوق شعر مارك الأسود لتستقر على عينيه وطفقت نظراته تفحص جسمها النحيل الغارق في المقعد الواسع المكسو بالقطيفة . ولم تستطع رافينا أن تحرك ساكنا . وتركزت عيناها على وجهه الصارم . لم تصدق عينيها في باديء الأمر ولكنها كانت حقيقة واقعة أن مارك جاء بحثا عنها .

سار الى الغرفة يتبعه ستيليو الذي بدا صبيا الى جوار مارك ونفر عصب في أحد صدغيه عندما استدار ليواجه الرسام . قال مارك بصوت بارد تشوبه مرارة الغضب : « أحب أن تقدم لي تفسيرا لهذا الموقف ماذا تفعل زوجتي هنا ؟ » .

كسا المطر الشرفة ودقت الساعة معلنة الوقت كأنها تريد أن تنبه رافينا بأن مكانها في هذه اللحظة يجب أن يكون في بيتها وليس الاستكانة الى فنان فاسق .سألت مارك :

« ماذا تفعل هنا ؟ هل رأني أحدهم وأنا أغادر الكازا مع ستيليو ؟ هل جئت الى هنا لتأخذني بعيدا ؟ »

رمقها بنظرة سوداء وقال : « لا ... تخربت عربتي في مكان ليس بعيدا من هنا وأعرف أن ستيليو فابريزي لديه تلفون فجئت أستأذن منه الحديث الى الكراج .ولم يكن لدي أدنى فكرة أنني سأجد زوجتي مع السنيور » .

مضت لحظة من لحظات الصمت التي تبدو فيها البراءة وكأنها أثمة ولم يقطع الصمت سوى صوت المطر المنهمر ولم تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تختلس النظر الى ستيليو ولما حاول ستيليو الكلام بدت نبرته وكأنها تؤكد كل مظاهر الاثم .

قال ستيليو : س كان الجو شديد الحرارة والرطوبة فرأينا أن نقوم بنزهة في السيارة . إنني السبب في دعوة رافينا للمجيء الى هنا لتناول بعض المشروبات . ولما وصلنا فاجأتنا العاصفة وحاولت أن أقنعها بأنه من الجنون قيادة السيارة عبر الجبال وسط هذا السيل المنهمر . لو أن العاصفة لم تحدث ... » .

قاطعه مارك قائلا : « لكنت حملتها عائدا الى البيت دون أن أعرف أنها كانت هنا بصحبتك » .

ونظر الى رافينا بنظرات مبهمة مدركا أنها كانت ستكتم ما حدث وعندما تقدم خطوة نحوها تراجعت والذعر يتملكها وكأنها تخشى أن يلمسها وقالت له بتحد سافر : « هل نخلق من هذا الأمر مأساة ؟ احتسيت كأسا ولم يكن سوى مقو بالثلج » .

ولمح مارك كأس التيوليب فوق المنضدة الواقعة الى جوار المقعد الذي تجلس عليه فالتقطها وراح يتشممها وأعاد الكأس الى مكانها وسأل ستيليو :

« هل فرغت من رسم صورة زوجتي ؟ » .

أجاب ستيليو : « فشل الرسم فشلا ذريعا . ظننت في البداية أن رافينا موضوع سعيد يصلح للرسم ، ولكني الآن عرفت أنها امرأة تعسة ولست أستطيع أن أنقل الى القماش حقيقتها . ليس في وسعي أن أفعل المزيد من الرسم مثلما عجزت أنت على أن تستحوذ على قلبها يا سنيور دي كورزيو » .

واجه الرجلان كل منهما الآخر حينما تزلق بريق ضوء عبر الغرفة فتطلع مارك اليه وقال ساخرا : « هل تتصور إنك إستحوذت على قلبها ؟ أنت تخدع نفسك يا سنيور . إن الرجل الذي يستحوذ على قلب رافينا بعيد من هنا .

يمكنها أن تغفر له خطاياه والمرأة تستطيع أن تفعل ذلك من أجل الرجل الذي تحبه » .

وتطلع ستيليو نحوها وبدت الحيرة في عينيه وقال : « رافينا » .

قالت وهي تتطلع الى مارك : « أرجو العودة الى البيت . لن أتخشى طرقات الجبل ، اتصل بالكراج هاتفيا ودعهم يصلحون سيارتك » .

قال ستيليو بصوت حاسم :

« خذ سيارتي ، اليك المفاتيح سوف أستأجر زورقا يحملني غدا الى الكازا لأجمع أدوات الرسم سوف أعود بسيارتي الى بيتي » .

وكان ستيليو يتحدى مارك في أن يقود السيارة اللوتس في خضم العاصفة ويخترق بها الطرقات التي تتعرض لانهيار التربة نتيجة للسيل المنهمر ثن انتقل ببصره الى رافينا وكانت عينا جامدتين .ولم تتفوه رافينا بكلمة . كانت واثقة أن مارك سوف يقبل التحدي اذ قال لستيليو :

« هل لك أن تعير زوجتي معطفا ؟ » .

وأحنى الرسام رأسه بالايجاب وغادر الغرفة ليحضر معطفا . وحرك مارك مفاتيح السيارة بيده وسأل رافينا : « هل أنت عصبية ؟ » .

وحملق فيها وبرق ضوء غريب فى عينيه وقال : « أنا معجب دائما بشجاعتك الأمر الوحيد الذي لا يمنع دهشتي هو أن فتاة لها مثل شجاعتك تقع في حب جبان » .

وتوقف مارك عن مواصلة الكلام حينما عاد ستيليو وهو يحمل معطفا واقيا من المطر ، وكانت عيناه مضطربتين وقال :

« سنيور ألا تمكث هنا حتى تهدأ العاصفة . هناك طعام في الثلاجة » .

أمسكت رافينا المعطف وقالت : « ستيليو عندما يصدر مارك قرارا لتنفيذ أمر ما فلا أحد يمكنه أن يثنيه عن عزمه . اذا سزلتك يا مارك ... كلا لن أتوسل شيئا ... » .

وسارت الى الباب وبدت نحيلة وهي ترتدي المعطف الفضفاض الطويل وقالت : « ألا نذهب يا مارك ؟ سرعان ما يهبط الظلام » .

واستمر هطول المطر بينما أخذت عجلات السيارة تغادر أرض الفيلا وحدقت رافينا بنظراتها عبر النافذة التي راحت المساحات تزيل الماد اللاصق فوق سطحها ، وكان مارك يمسك عجلة القيادة بثقة تامة ولم يتفوه بكلمة

وانما كانت نظراته مثبتة على الطريق الممتدة أمامه . وسار بالسيارة نصف ساعة توقف بعدها عند مكان يجاور أرضا مزروعة بالحشائش تقع تحت الجبال ثم استدار نحو رافينا وتلألأ ضوء على وجهه المشوه بالندوب وقال بوحشة :

« لاأستطيع أن أفعل ذلك » .

وتطلع الى يديه اللتين تقلصتا على عجلة القيادة فبدت الحروق واضحة واستطرد يقول : « سيكون من الجنون في مثل هذه الليلة » .

وتركز بصر رافينا فوق وجهه وأدركت أي ذكرى مخيفة تسيطر عليه بضراوة وتحول دون مواصلة قيادة السيارة ، فقد تذكر دريستي حينما وقع في شراك حطام السيارة الأخرى . وفجأة جذب المعطف عنها فبدا جسمها صغيرا وضائعا في ثناياه وقال لها : « يجب أن نمكث هنا قليلا .لا ... تذكرت الآن يوجد كوخ راع على مقربة من هنا . تعالي ، يمكننا أن نتناول عشاء من لحم الضأن المسلوق إذا أسعدنا الحظ » .

وراحا يقطعان الحقل بسرعة تحت وابل المطر المنهمر وقد التفت ذراعه حول وسطها ، بينما كان المعطف يتطاير في الهواء . ثم توقفا أمام كوخ يتكون من غرفة مستطيلة لها قبة مخروطية الشكل كالصنوبر ، وعالج مارك الباب فانفتح بسهولة . كانت النار خابية ولايوجد أي قدر فوق المدفأة وكشف وميض البرق عن وجود أريكة خشبية عريضة عليها ربطة من فرو الغنم وكرسي مستدير بثلاث أرجل وهراوة مستندة الى الجدار ، وهبت الرياح فاهتزت لها الهراوة وسقطت على الأرض ، مما دفع رافينا الى أن تقفز بعصبية .

قال لها مارك : « ادخلي » .

وهو يشعل عودا من الثقاب وطفق يتجول في الكوخ المهجورورأى بقايل شمعة في فتحة زجاجية فأشعلها وتطلعت رافينا الى مارك وقد وقف يحمي لهب الشمعة بيديه من تيار الهواء .

قال لها : « اقفلي الباب » .

قالت وهي ترتجف : « هل تنوي المكوث هنا ؟ » .

تركها ليغلق الباب بنفسه ثم قال : « ليس هناك بديل لذلك في الوقت الحاضر . انه مكان غريب يصلح لإيواء اثنين في ليلة عاصفة كهذه . يمكننا ان نشعل النار .. هل تخشين من وجودك وحدك معي في حين واتتك الجرأة للذهاب بالسيارة وسط العاصفة ؟ » .

« انني أخاف من وجود فئران » .

قال بابتسامة ساخرة « فئران الحقل .. لاتؤذيك » .

وعثر على كوة في الجدار وضع فيها الشمعة التي راحت تلقي بضوئها على مارك وهو يسعى نحو المدفأة ليوقد فيها نارا وقال :

« الخشب جاف وسوف يحترق جيدا تعالي يا رافينا سوف نتمتع بدفء عائلي قبل أن ينبلج نور الصباح » .

ودست يديها المضطربتين في جيوب معطف ستيليو فلم يحدث لها من قبل أن انفردت تماما بمارك حقا انه زوجها ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي يجعلها تشعر بالخجل وتدرك ادراكا تاما أنها امرأة ، وانتابها الوهن فاستندت بجسمها الى الباب الذي كان يهتز تحت وطأة عصف الريح .

قال لها مارك : « لاتقفي هناك في مواجهة تيار الهواء ، تعالي يا رافينا . امتثلت لطلبه وكأنها مسلوبة الإرادة وأحست بيديه تلمسان شعرها .

فقال لها : « شعرك مبتل من المطر «أشعل النار حالا .

وكانت خصلات شعره تنسدل مبللة فوق عينيه وأحست باغماءة خفيفة . وعندئذ أدركت ما يريد منها في هذا المكان الغريب الذي يقع في البراري وعندما بدأت ساقاها تتهاويان قام سريعا يرفعها الى الأريكة وأرقدها فوق فروة الغنم وأزاح خصلات شعرها من فوق جبينها وقال :

« حسنا أنا لست غاضبا من وجودك مع فابريزي أنت طفلة مسكينة ممزقة الأعصاب » .

« مارك » .

« ولاكلمة ... استريحي قليلا حتى أشعل النار» .

وتوجه الى المدفأة وبدأ في قطع الحطب وراح يبحث عن ورقة في جيبه يضعها تحت الحطب حتى تساعد على اندلاع النار ولمحت رافينا أنه يسحب خطابا من جيبه ويطلق زفرة حاره من صدره ثم كوره ووضعه تحت الخشب وأضرم النار فيه ، وبينما كان الخطاب يحترق سمعت الحطب يصدر طقطقة ، وكان مارك يحدق في اللهب المشتعل وقد ران عليه السكون .

فجأة استوت رافينا جالسة على الأريكة وأرادت أن تعرف فحوى الرسالة التي كانت تحترق في المدفأة . سألته :

« مارك ما هذا الخطاب ؟ أرجوك أنظر الي أخبرني » .

انتصب قوامه مشدودا وعندما استدار كان قناع أسود اللون يكسو وجهه وقال بصوت خلا منه الدفء :

« غدا أخبرك » .

انزلقت رافينا بجسمها تترك الأريكة وقالت :

« كلا أخبرني الآن » .

ونظرت الى النار التي كانت تحرق الرسالة وحولتها الى رماد وأحست بدقات قلبها تتدافع بسرعة وقال لها بخشونة :

« إنه خطاب مرسل الى رودري برينين عثرت عليه في غرفتك منذ فترة . خطاب لم تبعثي به أوردت فيه مقابلتك له يوم زفافنا . هل أردد على مسامعك كلماتك ؟ » .

رفعت رافينا يدها وتحسست رقبتها وسمعت صوت مارك رقيقا تشوبه نبرة خطرة : « احترق الخطاب ولكن الكلمات لم تحترق . كانت تقول [أرغب في رؤيتك مرة أخرى وأنا لست أسفة حتى لو غضب مارك . إن تلك الساعات التي أمضيتها معك ساعدتني على مواجهة موقف بالغ الخطورة ، إن روابط الحب بيننا تتطلب السرية التامة إنني أتعلق بها كلما أحسست بأنني أغرق في عمق الماء الذي أتردى فيه .] . » صمت ثم أردف يقول بغضب :

« هنا توقفت الرسالة لم تحاولي إتمامها هل شعرت بأنك لاتحتملين ارسال خطاب اليه في حين كنت تتوقين دائما الى صحبته ؟ إن الكتابة عن تلك الساعات التي أمضيتها معه في يوم زفافنا لابد أنها عذبتك حتى أنك كورت الرسالة وألقيت بها ولم يتطرق الى ذهنك أن زوجك قد يعثر عليها فيلتقطها وفضها من باب الفضول » .

حدقت رافينا ببصرها في مارك وأدركت سوء الفهم الذي التبس عليه عندما قرأ عبارة [تلك الساعات التي أمضيتها معك] . كلمات تحمل معني واحد عند مارك فقد ظن أنها هي وورودري عاشقان .لابد من سبيل لنفي هذه التهمة ولكنها رأت صورة المرارة التي ارتسمت على فمه وأنه على استعداد لأن يزدري أي شيء تقوله ، وانتابتها رجفة حينما زمجرت الريح حول الكوخ .

فقال لها : « أنا أسف ليس لدينا أي طعام نأكله أو شراب نحتسيه وخير لك أن تكوني جائعة من أن نتورط في حادث على طريق الجبل » .

وبحث مارك في جيبه وأخرج علبة تبغ واستطرد يقول :

« إن واحدة منها سوف تصيبك بدوار هل يضايقك إذا دخنت لفافة ؟ »

قالت بصوت يشوب نبرته اليأس : « أرجوك يمكنك أن تدخن » .

أخرج سيكارة وأشعلها ونفث الدخان دون أن يرفع بصره عن عينيها ولم تحتمل قوة نظراته التي تحاول أن تقرأ ما يدور في عقلها ، وسارت الى المقعد المستدير ذي الأرجل الثلاث وسحبته قريبا من النار وجلست عليه وراحت تدفيء يديها .

قالت : « أنا لست جائعة وإنما أريد فنجانا من الشاي » .

وتصاعدت حلقات الدخان في الهواء وكأنها علامات تساؤل . وقال :

« لانونا سوف تقلق علينا . لماذا لم تمكثي في البيت . كان في وسعي أن أعود الى البيت وحدي لكن الأمر لايهم كثيرا » .

قالت رافينا : « سوف تغامر بحياتك ؟ » .

هز كتفيه باستخفاف وقال : « ولن أغامر بحياتك يا عزيزتي ! لاتنظري بانزعاج لست بصدد أن أعلن عن مدى حبي لك . أنت صغيرة ودريستي كان صغيرا والحياة حلوة حتى لو امتزج اللوز المر بالقرنفل » .

سألته : « هل كان دريستي يشبهك ؟ » .

لم يسبق لها أن طرحت عليه هذا السؤال من قبل ولكنها الآن تشعر بدافع قوي الى أن تعرف ذلك ، وتطلعت الى زوجها وبالرغم من الندوب الرهيبة التي تشوه وجهه إلا أنه بدا لها أنيقا في ضوء النار المشتعلة .

هز رأسه بالايجاب وقال : « أجل كان يشبهني ، يجب أن أريك صورته » .

وشد على شفتيه وهو يخرج محفظته ويفتحها ويسحب منها صورة صغيرة ويناولها اياها . وراحت تتفحص صورة الطفل ذي الشعر الأسود . عيناه تتلألآن مرحا ، وصفحة وجهه تعكس صورة وجه أبيه قبل إصابته في الحادث . وطفقترافينا تتأمل الصورة فترة طويلة وراحت تكافح الدموع التي أوشكت أن تطفر من عينيها . الآن فقط أدركت السبب الذي دفعه الى البحث عن الفتاة القريبة من قلب رودري ليجبرها على الزواج منه هو .

منذ أن بدأت الحياة منذ أمنا حواء ومنذ عهد هيلين كان على المرأة أن تدفع الثمن ففي وسعها أن تتذوق المرارة مع حلاوة الحب ، وعندما أعادت له الصورة تلامست أيديهما وتذكرت أنهما وحدهما في الكوخ .

قالت له : « يبدو أن الريح بدأت تهمد في الخارج » .
ولكن العاصفة كانت لاتزال تصفق الباب والسناج يتساقط مبتلا من مدخنة المدفأة فابتسمت بعصبية وطفقت تهز كتفيها باستخفاف .
قال مارك : « أنت متعبة اخلدي الى النوم . إن الأريكة تصلح للنوم بل هي خشنة ولكنها نظيفة » .
لم تنهض رافينا من فوق المقعد وسألته :
« وماذا عنك يا مارك ؟ أنا مستريحة هنا بجوار النار » .
قال : « الحطب أوشك على أن يذوب وعندما تخمد النار سيزداد البرد في المكان وأفضل أن تتدثري وأنت نائمة فوق الأريكة . تعالي » .
ومد اليها يده ليساعدها على النهوض فقالت له بتردد :
« لايمكنك الجلوس على المقعد انه منخفض وأنت طويل » .
« سأكون بخير ، النساء يتمتعن بنعمة القلق » .
قالت : « إننا نستطيع أن نجلس سويا على الأريكة » .
توردت وجنتاها بحمرة الخجل وكأنها عروس في ليلة زفافها واستطردت تقول : « لاتستطيع أن تتجول في الكوخ طوال الليل ، لن يطرق النوم أجفاني وأنا أراك لاتقوى على الرقاد » .
قال ضاحكا : « هل أنت الانسانة التي تفكر في ؟ » .
وفجأة انتصبت ورفعها بذراع واحدة واستطرد يقول :
« لاأستطيع أن أقاسمك الجلوس على الأريكة فسرعان ما ينتابك الذعر وحتى الان مازالت عصبية من لمس يدي » .
أدخلت رافينا قدميها في فروة الغنم لتشعر بالدفء وألقى مارك بآخر قطعة حطب في المدفأة وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة وعلى ضوء النار المشتعلة عاد وجلس الى جوارها وجذبها الى كتفه وراحا يتطلعان الى النار التي أخذ لهيبها يخبو تدريجيا . وبدأت أصوات الريح تتلاشى بينما استغرقت رافينا في النوم ورزسها مستقر فوق كتفه العريضة وأمضيا ليلة غريبة وعندما استيقظت رافينا عند الفجر وجدت نفسها بين ذراعي مارك ووجهها يتمتع بدفء عنقه وظنت وهي نصف حالمة أنهما في برج الفارس ، ولكنها أدركت الحقيقة عندما أفاقت تماما ورأت كوخ الراعي وبقايا الرماد في المدفأة .
تركت بصرها يعود ليستقر على وجه مارك الذي كان مستغرقا في النوم

وقد استند بظهره الى الطاولة ولما كان البرد الشديد قد زحف الى الكوخ أثناء الليل فانه جذبها بذراعه وضمها الى صدره يلتمس الدفء فلم تشعر بأدنى خوف منه . والآن أدركت كيف يكون الرجل غير محمي وهو في قبضة النوم . كان شعره مشعثا وذقنه التي كساها الشعر زرقاء وقوية وشفتاه صارمتان ووجنتاه تبرزان التجاويف تحتهما أما ندوبه فلم تنتقل الى ابه وانما ورث عنه الكبرياء والعاطفة .ملكها الذعر فأسرعت تسبل رموشها وشعرت بذراعيه تشتدان حولها عندما بدأ يستيقظ وأطلق زمجرة واستدار بوجهه وهمس قائلا :
« يا حبيبتي ! » .
لم يسبق له استعمال هذه الكلمة من قبل ، نفدت من فمه ناعمة تشوبها الألفة والمودة وعرفت أنه نصف حالم ولايتفوه بها انسان الا للمرأة التي أحبها ثم فقدها .فتح عينيه وتطلع الى رافينا وفي الحال بدت فيهما نظرة الحارس الذي يذود عن أملاكه ، وفجأة تبين المكان المحيط بهما فأطلق سراحها بسرعة وانتفض واقفا على قدميه وقال :
« يا له من مكان كئيب هيا بنا يا رافينا المطر قد توقف وحان الوقت لأن نعود الى البيت » .
تركت رافينا الأريكة ومدت ذراعيها أمامها ثم قامت بتسوية شعرها بيدها وصاحت : « أشعر بالفوضى في مظهري » .
وطفق مارك يجيل بصره فيها ولاح التجهم على شفتيه ثم قال :
« يبدو عليك وكأنك أمضيت ليلة مضنية فوق سطح قرميدة » .
قالت : « أنظر الى نفسك أيضا » .
وسبقته الى مغادرة الكوخ لتستقبل هواء الصباح . رأت ألسنة من لهب الشمس في الأفق وسمعت الطيور تشدو على الأغصان . سارا فوق الحشائش المبتلة ووجدا السيارة مغطاة بقطرات المطر . مسح مارك الزجاج قبل أن يتخذ مكانه وراء عجلة القيادة ويستقر الى جوار رافينا واتجها صوب أشعة الصباح المشرقة . بدزت نسمات الفجر تهب عبر النوافذ وبدت الزهور متفتحة وامتزج شروق الشمس بزمواج البحر ليصنعا معا لوحة رائعة التكوين وعندما سألها مارك اذا كانت تحب أن يكشف غطاد السيارة ابتسمت موافقة والتقطت أنفاسها عندما أخذ الهواء يداعب شعرها المتطاير . انهما يستحقان مثل هذه الرحلة الصباحية بعدما اقتسما سويا ليلة غريبة أمضياها في كوخ كئيب وناما

على زريكة خشبية .

وفجأة رأى مارك شجرة اقتلعتها الرياح من أرضها تعترض الطريق فأوقف السيارة سريعا وكان من الواضح أنه لابد من المرور بمحاذاة حافة الطريق شديدة الإنحدار اذا ما فكر في أن يدور بسيارته حول الشجرة . ومال نحو رافينا وفتح لها الباب المجاور لها وقال لها :

«من فضلك إذهبي وحدك سيرا على الأقدام لن أعبر بسيارتي حول الشجرة ومعي راكب » .

« ولكن يا مارك ... » .

قال : « لن نناقش الأمر » .

ودفعها خارج السيارة واستطرد يقول :

« سيرى حول الشجرة وانتظريني على بعد خطوات منها » .

قالت : « أنت السيد » .

وامتثلت لأمره ، لم ينس مارك حطام السيارة الاخرى والمخاطر التي أجتازتها ولن يجرؤ على أن يجتاز مخاطره أخرى .وعندما سارت رافينا واستدارت حول الشجرة تبينت أن المسافة التي ستعبرها السيارة بالغة الضيق وعلى مارك أن يجتازها بحذر شديد فقفز قلبها بين ضلوعها وراودتها الرغبة في أن تقفل عائدة اليه وتتوسل اليه ألا يخاطر بحياته وفي وسعه أن يترك السيارة مكانها ويغلق أبوابها ويطلب من ستيليو الحضور لإستعادتها من هذا المكان ، لكنها ما كادت تبدأ في العودة حتى رأت مارك يدير محرك السيارة ويسير بها بين نهاية أغصان الشجرة وحافة الجبل .

تسمرت قدما رافينا وبدت كالتمثال الأصم لايتحرك منها شيء سوى شعرها الأحمر المتطاير وتوقفت أنفاسها وهي ترى السيارة تنسل من الممر الضيق لتنطلق الى الطريق الواسع ، وتتوقف الى جوارها ويفتح مارك لها الباب وينظر اليها نظرات متسائلة ويقول لها : « إدخلي » .

وقفت جاحظة العينين ولم تتصور أنه يخاطر بهذه الطريقة فانتابها غضب شديد هزها من رأسها الى أخمص قدميها ، قالت له :

« لماذا تشدنى الى حياتك ؟ اذا كنت ترغب في أن تعيش مع أشباحك فلماذا لم تتركني مع جاردي ؟ إنه سوف يهتم بي » .

« رافينا ... » .

وراحت تبتعد عن السيارة ثم بدأت تجري في كل إتجاه ولم تكن تكترث بما قد يحدث وسمعت ورادها صوت خطوات تقتفي أثرها وأحست بحشرجة فى حلقها عندما أطبق مارك على عنقها وأمسك بها :

« رافينا .. أنا أسف أنني أفزعتك » .

ألقت بنفسها عليه وقالت :

« أنت لم تفزعني ولكنك أريتني كيف يبدو زواجنا في صورة مسرحية هزلية ساخرة جوفاء . لم يكن شيئا غير ذلك ... ليس هناك حب ولا عاطفة لاشيء البتة سوى الذكريات التي نحياها أوه .. لماذا لاتتركني وحدي ؟ هل تعرف يا مارك ماذا فعلت بي ؟ هل يهمك ذلك كثيرا ؟ » . هزت رأسها وانعكست أشعة الشمس علس شعرها فبدا متألقا بينما كانت عيناها قد فقدتا ظلالهما واستطردت تقول :

« عرفت الآن الى أي مدى أنت تهتم بي ، لن أغفر لك .. مطلقا ! » .

وتخلصت منه ... وعادت الى السيارة واستقرت في مقعدها ، وكان الصباح منسما بجمال البكور فلم تعد تسمع زقزقة الطيور ، ولم تعد ترى زرقةالسماء او المياة الفضية للمحيط ولم تكلف نفسها مشقة التطلع الى مارك وهو يتخذ مكانه الى جوارها ليقود السيارة . كان وجهها باردا ولم تعد شفتاها ترتجفان ، تملكها تحفظ بارد فلم تعد ترغب في التحدث او حتى سماع أي حديث . واحترم مارك صمتها وهو يتخذ طريقه الى منزل السرو .

مرت الأيام بعد ذلك خاوية ، لم يأت ستيليو الى البيت ، وخلال النهار كانت تقوم رافينا بجولة في القرية وترتقي التل حتى تبلغ قمته أو تستلقي في تكاسلعلى الشاطيء ، وتسلمت رسالة من جاردي وأجابت عليها فوصفت له كاسيل مونتي باستفاضة ولكنها كانت مقتضبه في الكتابة عن حياتها مع مارك . وسوف يعزو سبب اقتضابها الى خجلها الطبيعى وفي ختام الرسالة بعثت تمنياتها الطيبةالى رودري ولن تستطع الكتابة اليه بعد تلك الرسالة التي وقعت في يدي مارك .

ولم يحاول مارك الإشارة الى الرسالة الناقصة ثانية وكانت تدرك أنه قرأها مرارا قبل أن يلقي بها الى النار وأنه يقتبس منعا عبارات كتبتها كاملة ، من بينها عبارة [تلك الساعات التي أمضيتها معك] . كيف تستطيع أن تقنع مارك بأن الحديث وحده هو الذي ملأ هذه الساعات التي أمضتها معه .

إتخذت رافينا طريقها الى مكتب بريد القرية لتبعث برسالتها وفي طريق عودتها مرت بمنزل جلست ببابه سيدة ترتدي شالا أسود اللون وتصنع إحدى شرائط الزينة فتوقفت لتبدي إعجابها بالشريط وسألتها إن كان في وسعها شراؤه ، دعتها السيدة الى داخل البيت لتلقي نظرة على عينات مختلفة من صنع يديها ، فاشترت ياقة جميلة وزوجا من الأساور . وقالت المرأة أن أسمها فيرتيويللا وطلبت من رافينا بابتسامة وقوه أن تمكث قليلا وتتناول فنجانا من القهوة معها ، وكان ارتياد طرقات القرية جعلها تشعر بالظمأ فجلست الى مائدة تكسوها المرأة بوشاح من الحرير الازرق وانطلقت المرأة بسرعة تجول في مطبخها الصغير وتعود بالفطائر لتقدمها لرافينا فكانت لذيذة .

قالت رافينا : « يجب أن تعلميني طريقة عمل الفطائر ، اعتدت طهو بعض الأطعمة قبل زواجي ويجب أن أعيد المحاولة ثانية وتحدوني الرغبة الى غزو المطبخ فى الكازا ، ولكن دوناجوكاستا تدير كل شيء وزنا أحب أن أتدخل في شؤونها .» .

وحدقت فيرتيويللا في وجه رافينا وانتابتها الدهشة لهذا النبز الجديد ثم قالت ببطء : « أنت تختلفين عن سنيورا دوناتا فهي كانت تدير كل شيء ولم تحاول أن تشتري مني أحد الشرائط لتزين بها ثوبها بل رعتادت أن تشتري ثيابها من روما وكانت أنيقة ومحبوبة جدا » .

قالت رافينا بهدوء : « رأيت صورتها ، كانت فاتنة » .

قالت فيرتيويللا : « كانت تبدو سيدة عظيمة » .

وأحست رافينا بنبرة ساحرة في صوت فيرتيويللا كما أن نظرتها كانت تدعو الى التساؤل وفتحت فيرتيويللا صندوق سكائر موضوعا فوق المائدة وتناولت علبة أوراق الكوتشينة :

« إنها سيدة عظيمة مثلك ، هل تحبين أن أقرء طالعك ؟ » .

وضعت فيرتيويللا الورق وانكفأت الصور على وجهها فوق المائدة فدق قلب رافينا وهي تقول : « أنت تعنين أنك تريدين قراءة حظي ؟ » .

هزت المرأة رأسها بالإيجاب وبدت في صورة امرأة غجرية بوجهها الذي لفحته أشعة الشمس وشالها الزسود الذي يكسو رأسها وكانت عيناها مسلطتين على وجه رافينا وقالت لها :

« ألا تخافين من قراءة الورق ومما قد يكشفه لك ؟ وألا يراودك الشك

فيما يقوله لك ؟ » .

هزت رافينا رأسها بالنفي وقالت : « أبدا أنا سلتسة وهذا معناه أنني لاأسخر من السحر وأؤمن بوجود أشخاص لهم القدرة على قراءة الغيب » .

« إذن إقلبي ثلاث ورقات لتبدو صورها أمامي » .

امتثلت رافينا لطلبها وقامت مضيفتها بفحص الأوراق وكان الهدوء يسود البيت الا من بعض الأصوات التي تأتي من حفيف الحطب الموجود فوق السطح وبين لحظة وأخرى كان الزتان يرفس المربط وكأنه يتململ من صحبته ، وأخيرا قالت فيرتيويللا : « آه ... هناك إحتفال ينتظرك يا سنيورا . هل ترين ؟ هناك مهرج في أول ورقة وقع اختيارك عليها ، وهو مستغرق في الضحك . أجل ، إحتفال . وقت طيب لك » .

ابتسمت رافينا وقالت : س ربما يكون إحتفال مادري روزاريا الذي سنقوم بمشاهدته » .

« أنت والسنيور .. » .

« أجل . إنه يرغب في أن نذهب الى هناك هذا العام » .

هزت فيرتيويللا رأسها ثم ركزت عينيها السوداوين على الورقة الثالثة وكأن الورقة الثانية لم تثر اهتمامها كثيرا . وتمتمت قائلة :

« هناك طائر بأجنحة سوداء ، آه ، إنه نذير نحس يا سنيورا ! من المحتل أنه يعني ... » .

وتمهلت قليلا لتفحص وجه رافينا التي سألتها :

« ماذا يمكن أن يعني ؟ أرجوك أخبريني » .

راحت فيرتيويللا تخلط الورق ثم قالت :

« أوه . وقت غير سار ، ربما أخبار سيئة أه ، ولكن هذا مجرد تسلية ويجب عليك ألا تأخذي الأمر باهتمام بالغ » .

وقفت رافينا وقالت وهي شاردة الفكر : « أبدا ، يجب أن أعود الى البيت ، أشكرك على شرائط الياقة والأساور ، ستبدو جميلة على ثوبي الأخضر » .

وفي طريق العودة الى الكازا أخذت الأفكار تطن في ذهنها حول ماقالته أوراق الكوتشينة . وحاولت أن توحي لنفسها أنها مجرد تسلية ولكنها ما كادت تقترب من منزل السرو حتى حلق طائر موحش أسود اللون في كبد السماء . كان الطائر الأسود الموحش الذي رأته في الورقة التي قلبتها أمام

فيرتيويللا . وعندما دخلت فناء البيت وجدت مارك يقف في ظلال احدى فجوات المنزل ينفث لفافة تبغ ، أسرعت نحوه وهي تمسك بالطرد الصغير الذي يحتوي على شرائط الزينة وقالت له : «هالو» .

وأرادت أن يضع ذراعه حولها وأن يطرد دفء رجولته البرودة التي تملكتها منذ لحظة وجيزة ولكنها كانت تشكو من البرودة نحوه لعدة أيام مضت ولم يبذل أي محاولة لكي يلمسها .

سألها : « أين كنت ؟ » .

قالت : « ذهبت الى القرية واشتريت بعض شرائط الزينة » .

وأحست بشيء يعتصر حلقها ويخنقها وبدا لها أنه يدرك حاجتها الى الراحة ثم استطردت تقول :

« اشتريتها من سيدة تدعى فيرتيويللا جلست اليها واحتسيت فنجانا من القهوة معها » .

قال وهو ينفض رماد السيكارة :

« حسنا أنا سعيد لأنك أقمت علاقات صداقة مع بعض الناس » .

أرخت جفنيها وأحست بالدموع تطفر من عينيها فدخلت وعبرت الصالة التي تؤدي الى درجات السلم وفي هذه اللحظة لم يبد لها منزل السرو غريبا عنها زو وحيدا فوق الجبال ! .

* * *

٨ـ خيانة في العيد ؟

كانت أشجار الكروم مثقلة بعناقيد العنب ، وكان عصيرها حلوا لكن رافينا أحست بمرارة عندما تذوقته أن العناقيد لم تكن معدة بعد لعصرها . الجميز أينع فوق الأشجار وحدائق الليمون تفوح برائحة نفاذه ، كل سيء مفعم بالحياة يحمل رافينا على الهروب الى المغارة حيث تقرأ كتلبا أو ترطب أصابعها في النافورة وتتأمل مليا في المستقبل . وأحيانا تمر بها ساعات تستمتع فيها بوحدتها قبل أن يقطع خادم عليها خلوتها ليدعوها الى تناول طعام الغذاء أو تناول الشاي مع زائر . وعندما تأتي زوجات شركاء مارك في العمل لزيارتها كن يلمحن لها أنها تمتلك المقدرة على أن تسوس قياد رجل قهار مثل مارك وكانت تضحك قائلة :

إنني لا أقوى على أن أسوس أمر مارك وإلا كنت مثل الهرة الصغيرة التي تحاول أن تروض النمر » .

وكانت بعض النسوة يسألنها : « وهل تطرق حديثه معك الى الكلام عن دوناتا ؟ كانت فتاة جميلة ولكنها لم تكن هرة صغيرة » .

ولم تشهد دوناجوكاستا مثل هذه الزيارات التي كانت تطرح فيها النساد مثل هذه الأسئلة ولكنها كانت تحب أن تسمع ما دار في هذه اللقادات وتدعو رافينا من حين الى أخر الى صالونها لتتناول معها كأسا من الشراب .

وفي إحدى المرات كانت تهز كأسها وهي تستمع للحديث الذي دار بين رافينا وضيوفها ونظراتها مسلطة عليها ، ولكن رافينا هربت من نظراتها ليستقر بصرها في الشراب الذي يتراقص في كأسها وانتابتها رغبة مفاجئة في أن تمتطي جوادها وتنطلق به . أسرعت الى غرفتها وبدلت ثيابها وارتدت سروالا وقميصا وعقصت شعرها وطوته تحت قبعتها وبعد عشر دقائق إمتطت صهوة



جوادها ، وانطلقت الى رحاب الشمس التي كانت لاتزال تفيض على الكون بأشعتها . كانت هذه الأيام حارة وطويلة ولكن الريح كانت تهب دائما عبر السهل الواسع المعشب المطل على البحر ، وكان من دواعي البهجة أن يرتاض المرء بجواده ليتنسم الهواء المعم برائحة نفاذة وأحست رافينا أن الجواد يطير بخيلاء تحدوه سعادة لاتقل عن سعادتها وهو ينطلق الى رحاب الهواء الطلق حتى بلغا حدود السهل وعلى حين فجأة طارت قبعتها من فوق رأسها وكان لزاما عليها أن تترجل لتستعيدها ولكن الهواء حمل القبعة بعيدا حتى استقرت عند أكمة الحشائش تقع على حافة المنحدر الصخري الشاهق . وعندما انقضت على القبعة تمسكها بيدها لمحت عند المنحدر رجلا وفتاة يتجاذبان الحديث وكانت الفتاة ذات شعر أسود اللون يتطاير مع نسمة الهواء وتتحدث باهتمام شديد معهوفجأة أحاطت عنقه بذراعها ودفنت وجهها في وجهه ولم يدفعها عنه وإنما أخذ يضمها الى صدره .

كان العشب يبدو أطول من الأثنين فركعت رافينا وراحت تحدق فيهما بعينين شابتهما برودة الثلج ، إنها تستطيع أن تتعرف الى الرجل في وسط أي زحام ولايمكن أن تخطيء شخصيته وهو واقف مع الفتاة . نهضت رافينا وابتعدت وتذكرت الفتاة التي كانت بين ذراعي مارك . إنها الفتاة الحافية القدمين التي شاهدتها في المطعم حيث قامت على خدمتها بتقديم أطباق السردين . أحنى الجواد رأسه يلتهم العشب وحينما أراحت رافينا رأسها على سرجه أدار رأسه ووهبها نظرة حنان وكأن بهجتها المؤودة انتقلت اليه .

لم يكن شعورا بالغضب أو بالصدمة هو الذي انتابها وإنما شعور بالحزن لأن مارك أجبرها على الزواج منه بينما كان في وسعه أن يجد سعادته أو ربما يستطيع أن ينسى ماضيه مع فتاة من بنات أهله ولدت وترعرعت هنا وتحب الجزيرة كما يحبها هو وتفهم عقد أهل سردينيا وتسبر أغوائهم .

تنهدت رافينا وتنهد جوادها بدوره وأدارت رأسه ليتخذ طريقه الى الكازاتشيبريسو عائدة الى المنزل مرورا بفناء الكروم ، واعتذرت عن الهبوط الى غرفة الطعام لتتناول لغذاء ، وعللت اعتذارها بأنها تناولت بعض عناقيد العنب الفجة فأصابتها بزلم خفيف في معدتها .

ترك مارك رابطة عنقه غير معقودة واقترب من فراشها وانحنى عليها وتحسس جبينها بيده وقال لها :

« أنت تعانين من حمى خفيفة ، سوف أستدعي لك الطبيب » .

أجفلت من لمسة يده وقالت :

« لاأرجوك لاتفعل يا مارك ، سأشعر بتحسن حالا . كل ما في الأمر أنني لاأشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام » .

قال مقترحا عليها : « ربما وجبة خفيفة تناسبك » .

هزت رأسها بالرفض لأنها لم تكن تشعر بأدنى شهية للطعام وكان كل ما ترغب فيه هو أن يدعها وحدها فجحظت عيناه وألقى المصباح بضوئه فبدت رافينا ضائعة وحزينة .

سألها : « هل ترغبين في أن أمكث الى جوارك ؟ » .

ندت من فمها كلمة : « لا .. لا .. سأكون بخير » .

« ما بك يا رافينا ؟ » .

تطلعت اليه فرأت رابطة عنقه المحلولة وشعره الأشعث وبدا له كأنه كان مستعجلا في ارتداء ملابسه وشعرت بطعنة نجلاء تخترق ظهرها عندما أبدى رغبته فى المكوث معها ، وودت لو أبدت له احتقارها لرغبته في الوقت الذي يكرس فيه كل أفكاره وأشواقه للفتاة الأخرى .

قالت له : س أريد أن أنفرد بنفسي .. أشعر بألم خفيف » .

« لأنك تناولت الحصرم ؟ » .

أشاحت بوجهها عنه ولكنه جلس يتفكه الى جوارها على الفراش وأمسك برأسها المتوج بالشعر الأحمر وانتشرت خصلاته فوق الوسائد البيضاد وتلألأت عيناها الخضراوان وسط امتقاع لون وجهها .

سألها : س لم كل هذا العبوس ؟ هل قالت لانونا شيئا أثارك ؟ لدي إنطباع بأن وشائج الصداقة بدأت تربط بينكما » .

« هل من الضروري أن أقدم لك تفسيرا لكل حالة نفسية أمر بها ؟ ألا تدعني أنعم بالهدوء ؟ » .

« أنت في حالة نفسية غريبة وهذا ما يقلقني يا رافينا » .

« لاتبالي البتة يا مارك ولا تفسد طعام غذائك بأمري » .

شاهدت نظرة عتاب في عينيه وتساءلت هل يجروء على أن يعاتبها ؟

توسلت الى قائلة : « أتركني وحدي أنا .. أنا لاأحتمل أن يلمسني أحد الليلة » .

سألها بهدوء : « أيهما تكرهين أكثر .. ندوبي أم قبلاتي ؟ » .
وشعرت مرة أخرى بطعنة من الألم تخترق جسمها ، وارتسمت صرخة مكتومة على فمها سرت في أوصانها ، فأطلق مارك سراحها وتركها ترقد ساكنة فوق الفراش ثم غادر غرفتها الى غرفته وأغلق الباب بهدوء وراءه . ولم يقم بزيارتها ثانية وبعد نصف ساعة جادتها صينية عليها شريحة من البطيخ وقطعة لحم وبطاطس والى جوار كل هذا رأت ورقة مطوية وأحست رافينا باهتزاز أصابعها وهي تقوم بفضها ، فقرأت :
« استدعيت في مهمة عمل وأرجو أن أعود في نهاية الأسبوع مع موعد الاحتفال بعيد مادري روزاريا ، ربما نكون حينئذ في أحسن حال » . مارك .
حدقت رافينا في الخط الأسود الفاحم الواضح وضوح الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم التي كانت في أحضان مارك وبهدوء سحقت الورقة ، كان يعلم تماما أن زواجهما يشوبه التوتر الحاد ومع هذا أجبرها على الرضوخ لرغبته ورغم الشك الذي راوده عن علاقتها بروردي فإنه هو السبب في أن حياتهما لاتطاق . تناولت طعامها دوب أدنى إحساس بمذاقه ، ثم جلست تجاه النافذة وراحت تتطلع الى القمر وهو يعتلي قمة أشجار السرو ، وكانت أشعته الفضية والنجوم المتلألئة تغسل صفحة السماء كما تنعي هي وحدتها ؟!

* * *

استيقظت رافينا في صباح يوم العيد يحدوها الاحساس بالاضطراب والأمل الذي يخالج كل شابة . إنها سوف تستمتع بيوم كامل تهرب فيه من الكازا .. يوم كله مرح وإنطلاق . عاد مارك متأخرا في الليلة التي تسبق يوم العيد واستطاعت أن تسمع حركاته في الغرفة المتاخمة لغرفتها وهو يفتح الدولاب ويسقط حذاءه ربما نتيجة لإضطرابه بقدوم اليوم التالي .
أخذت رافينا حماما ساعدتها وصيفتها في ارتداء ثوب الجدة الكبيرة ديملزا وكانت الوصيفة فرحة بالعيد ، وعلمت رافينا منها أن القرية بأسرها تنطلق الى التلال في هذا اليوم . كل أسرة تركب عربة مزينة أروع زينة ، ومزدانة بالشرائط الملونة وحتى الزتان يكون مكسوا بالورود .
ابتسمت رافينا وقالت :« أظن أنه احتفال ديني » .

« أجل يا بادرونسيتا . تتقدم صورة مادري روزاريا الموكب الذي يحمل المشاعل بينما يقوم الكاهن بتوزيع البركات على كل إنسان ثم يبدأ المهرجون في أداء ألعابهم النارية على أنغام الموسيقى .
« أرى مدى لهفتك يا روزيتا على الذهاب الى هناك . هل سيذهب صديقك معك ؟ » .
توردت وجنتا روزيتا بحمرة الخجل وخفضت جفنيها وقالت :
« تونيو سيصحبني معه على ظهر جواده ، إنها الطريقة التي يذهب بها المحبون الى الإحتفال » .
قالت رافينا : « يا له من تقليد جميل ! » .
ثم فتحت صنوق مجوهراتها وتناولت صليبها ووضعته على صدرها فوق بلوزتها البيضاء . ولاحظت وجود قرط كانت نادرا ما ترتديه أخذته وأمرت روزيتا أن تقف ساكنة حتى تثبته في أذنيها فزاد تورد خدي الفتاة وهي تقول :
« بادورنسيتا .. هذا القرط لي أنا ؟ » .
« أجل كم هو جميل في أذنيك . والآن انطلقي واستعدي للذهاب الى الاحتفال مع صديقك تونيو » .
أمسكت الفتاة بيد رافينا وراحت تقبلها وقالت لها :
«أنت طيبة القلب إنني سعيدة الحظ أن أقوم على خدمتك يا بادرونسيتا »
« إإطلقي الآن ولاتجعلي صديقك يطيل إنتظاره » .
وهزت الفتاة رأسها لتشعر باهتزاز القرط المتلألىء في أذنيها وبابتسامة سعيدة أسرعت تغادر الغرفة وعندما ثبتت رافينا الصليب حول عنقها تساءلت لماذا لايحدوها الاحساس بأن تكون خالية البال مثل وصيفتها التي إنطلقت الى الاحتفال بصحبة شاب يحبها .
كان الهدوء يسود الغرفة المجاورة وحدست أن مارك هبط الى الدور الأرضي لتناول طعام الإفطار وشعرت بطعنة ألم لأنه لم يأت لرؤيتها وهي ترتدي ثوبها الجميل الذي قدمه لها . راحت تتأمل نفسها في المرأة الطويلة المثبتة في الخزانة وحاز مظهرها على إعجابها . كان الثوب أخضر اللون بحافته أهداب قمحية اللون تلأم بشرتها وشعرها عقصته في تسريحة بديعة واشرأب عنقها من بين ثنايا فتحة البلوزة وتزلقت عيناها بخضرة الجواهر وبالرغم من تجاهل مارك لها والاضطراب الذي اجتاحها إلا أن عزمها قر على الاستمتاع

بكل لحظة من لحظات الاحتفال .

وتساءلت : هل تتوقع وجود ستيليو هناك ؟ افتقدت مداعباته وتمنت أن تراه . وبشعور أشبه بشعور فتاة تعيش في أوائل القرن جمعت أطراف ثوبها في يدها وإتخذت سبيلها وراحت تهبط درجات سلم برج الفارس ولم تقابل أحدا في طريقها فالخدم نالوا أجازة للمشاركة في الاحتفال مما أشعرها أن الكازا أصبحت مهجورة .عبرت رافينا البهو ودلفت الى غرفة المعيشة حيث وجدت طعام إفطارها معدا على المائدة : القهوة .. والخبز .. والعسل ، وتساءلت وهي تحتسي القهوة الى أي مكان توجه مارك الان / ربما يكون بصحبة لانونا التي ذكرت في الليلة السابقة بأنها كانت تحرص على مشاهدة الاحتفالات ولكن عظامها لم تعد تساعدها الان على مغادرة البيت .

انتاب رافينا القلق فلت تستطع المكوث فانطلقت الى الفناد حيث وقفت تستمتع بزشعة الشمس وراحت تتناول قطعة من الخبز المقدد عليه طبقة من العسل وبينما كانت تمسح شفتيها تناهى لسمعها صوت حوافر تقعقع في الأرض ، ولاح الجواد أدونيس في الفناء وعلى ظهره مارك .

هز الجواد عرفه وبرزت عضلاته تحت سرجه المصنوع الأسود وكان مارك يرتدى بنطلونا قصيرا أسود اللون وصديري مطرزا فوق قميص مكشكش وأكدت حافة قبعته تزلق عينيه . كان يبدو في كل شبر منه واحدا من أهالي سردينيا أو فارسا متكبرا ينطلق للصيد بصحبة الصقور وكلاب الصيد .

قال مارك لرافينا : « تعالي إصعدي وإجلسي أمامي فوق الجواد » .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تشدها عيناه فقد سحرتها بالسرج وبحركة قوية رفعها وأجلسها أمامه واقشعر بدنها قشعريرة خفيفة مقترنة بسرور خفي وأمسك بها بشدة بينما أخذ الجواد يبارح الفناد لينطلق الى عرض الطريق .وبعد لحظات أصبحا ضمن الموكب المرح الذى كان يسلك طريقه متجها الى الجبال حيث كنيسة مادري روزاريا . وكانت البغال محملة بأكوام من الفراش والأطفال الهازجين والعربات المطلية باللونين البرتقالي والأزرق ، تطايرت أشرطة الزينة في الهواء وجياد عربية وامتطاها العشاق الذين راحوا يطلقون أصواتهم بالغناء على أنغام الات الأكورديون .

كان المنظر كالحلم الجميل ورافينا تبدو كالطفل المأخوذ الذي لايجرؤ على الحديث أو الحركة خشية أن يتبخر سحر الحلم ، وشعرت بمارك يختلس

النظر اليها ولم تقو على التفكير في الأيام الثلاثة التي أمضاها بعيدا عنها فكانت مأخوذة بسحر اللحظة التي تعيش فيها . وتطلعت اليه وغطت رأسها بوشاح حريري تتقي به حرارة الشمس وقالت له :

« المنظر بديع ، أليس كذلك ؟ أنظر الى هؤلاء الصبية الأربعة الذين يمتطون البغال وهذه المرأة التي تحمل الطعام فوق رأسها ، على فكرة يا مارك نسينا إحضار الطعام لنا » .

ضحك مارك وبدا خلي البال مرحا ، ولم تستطع أن تمنع دهشتها من رؤية هذا التألق الذي لاح في عينيه وقال :

« قدمت زوجين من الغنم للحفل الذي سيقام هذا المساء ، وأماعن طعام الغذاء فإننا سنجد العديد من الناس الذين سيسارعون الى تقديم الفطائر والجبن والفاكهة ولاأدري كيف سنأكل كل ما يقدمونه لنا » .

ازدادت عيناه عمقا وسوادا عندما راح يتفرس في رافينا ثم أردف يقول :

« لم أشهد الاحتفال منذ مدة وأخشى أن يغمرنا الناس بكرمهم » .

وبينما كان مارك يتحدث الى رافينا أطلت امرأة من عربتها وقالت :

« إنه حدث جميل أن يشاركنا البادرون وزوجته هذا العام فلتبارككما مادري روزاريا » .

« وأنت أيضا يا سنيورا وزوجك الطيب وأولادك الصغار » .

وأحست رافينا بذراع مارك وعندما تطلعت اليه رأت في وجهه هذا الجمال الأسمر الذي أشارت اليه السيدة فيرتيوللا يوم اشترت منها أشرطة الزينة إذ قالت : « إنه أشبه بأمير بل رجل تعشقه الفتيات ! » .

واليوم يبدو مارك للمرة الثانية وهو يرتدي الثوب السردي وعيناه فرحتان بمنظر الموكب والأطفال والجمال المتوحش للجبال ، كما رأت فيه رجلا لايتحرق الى الانتقام لنفسه فرفعت يده المكسوة بالندوب في إيماءة تنم عن عاطفة وكأنها تريد أن تخفف من ذكرى الألم الذي اعتصر عظامه وبشرة يده التي احترقت .ولم يتبادلا الحديث ثانية حتى توقف الجميع لتناول طعام الغذاء في مكان يقع عند منتصف الطريق المؤدي الى الجبل ، وما كاد مارك يرفعها من فوق الجواد ويهبط بها الى الأرض حتى أحاط بها العديد من أفراد العئلات الذين راحوا يقدمون لهما ألوانا من الطعام .

إنها نزهة تتسم بالمرح ، جلسا على العشب وراحا يلتهمان الخبز مع

شرائح اللحم والزيتون الأسود ، ويحتسيان كؤوس الشراب ، وكانت الأغاني تتردد على أنغام الموسيقيوعندما حان الوقت للعودة سارا الى حيث كان يقف أدونيس بجوار جدول ، وشعرت بيدي مارك تكتنفهما قسوة خفيفة فندت منها صرخة قائلة : « مارك » .

قال لها : « أيتها الساحرة الصغيرة عيناك في خضرة أوراق الشجر يتلألأ فيهما سحر يحطم قبضتي ، أو يحيلني الى تمثال أصم » .

تلاحقت أنفاسها عندما جذبها بعيدا عن الجواد واختفى بها وراء صخرة كبيرة تتاخم الجول ، وهناك أجفلت وغطت عينيها بذراعيها ومال مارك نحوها وارتكز بمرفقه على الصخرة وراح يتطلع اليها وتهدلت خصلات شعره الأسود فوق عينيه حيث تألق فيهما حيوية الشباب المتوحش . وقام بحل جدائل شعرها . وأخذ يلف الخصلات حول عنقها الأبيض وسألها عن رودري من جديد فقالت مدافعة :

« هذا موضوع ليس له مكان في يومنا هذا أرجوك إنس رودري وأنا سوف أنسى أمر تلك الفتاة » .

وتوقفت عن مواصلة الحديث عندما ضاقت عيناه وازدادت حدة وسألها :

« أي فتاة تقصدين ؟ » .

قالت : « أنت تعرف ما أعنيه . الجميع شرعوا في الاستعداد للرحيل وخير لنا أن نرحل معهم » .

ألقت رافينا نظرة متعجلة على وجهه وتجهمه وحينما خطا خطوة واحدة أخذت في الدوران حول الصخرة هاربة منه . وسارت الى حيث كان يقف أدونيس وكان الناس يستعدون لقطع نصف المسافة المتبقية التي تؤدي الى الكنيسة فوق الجبل وكانوا يرددون أن الريح وحدها هي التي تدق أجراسها ، وبلا تفكير أسرعت نحو الجواد ووضعت قدمها على الركاب وسمعت صرخة عاجلة: « رافينا » .

ظنت أنها صرخة غاضبة فأمسكت بعرف أدونيس ليساعدها على وجوههم عندما تراجع الجواد الى الوراد ليلقي بها على ظهرها وقد تعلقت قدمها بالركاب وشعرها اللامع يتجرجر على الأرض . تعالت الصرخات تنبه الى الخطر المباغت فأسرع مارك الى الجواد الذي ارتفعت ساقاه الأماميتان عاليا فأمسك باللجام ليكبح جماحه ويهديء من روعه وفي الوقت نفسه

سارع شاب لإنقاذ رافينا التي كانت تعض شفتيها من شدة الألم .

أطلق مارك سراح قدم رافينا من قبضة الركاب ولم تستطع أن تكتم صرختها من الألم الذي نجم عن التواء كاحلها ، فناولها البعض قليلا من الشراب وقام البعض الآخر يغمس قطعة قماش في ماء بارد ثم عصبوا بها الكاحل . أبعد مارك خصلات شعرها عن وجهها الشاحب ثم قال :

« سأعود بك الى البيت » .

أمسكت بذراعه وقالت : « لا ، إنني أريد أن أحضر العيد » .

قال غاضبا : « عيد سعيد » .

بينما كانت الوجوه تطل من فوق كتفه تمتمت امرأة تسأل البادرونشينا أن تركب معها ومع أطفالها عربة العائلة . حاولت رافينا أن ترسم ابتسامة فوق شفتيها المرتجفتين ثم قالت :

« أرجوك يا مارك تخلص من الإضطراب الذي يكسو وجهك ، أنت تخيفني أكثر مما فعله أدونيس بي » .

قال : « كان من الممكن أن يسحقك الجواد بحوافره . ماذا كنت تحاولين عمله ؟ هل كنت عازمة على الهروب ثانية ! » .

عضت شفتيها وقالت : « مارك .. كل واحد منا يعترض طريق الآخر »

« هل تعترضين طريقي ؟ » .

تحدثه بعينيها الخضراوين قائلة :

« اذا كنت ترغب في أن أقول لك نعم اذن هي نعم » .

قال مارك « يوما ما سوف أصفعك يا رافينا » .

وكان أحدهم يعرف الإنكليزية فأطلق ضحكة خافتة كسرت حدة التوتر الذي ساد الموقف ، فرفعها مارك فوق ذراعيه ، وحملها الى عربة يقودها أتان هزيل ، تتطلع من فوقها رؤوس أطفال صغار دفعتهم أمهم جانبا قائلة لهم :

« أفسحوا المكان للسنيور ! » .

وقدمت بطانية لتجلس عليها رافينا ثم أردفت تقول :

« ضعي قدمك فوق هذه الوسادة .. يا سنيورا ! » .

ابتسمت رافينا في وجه الأطفال الأربعة وقالت :

« شكرا ، أنتم أكثر طيبة مما كنت أتصور » .

وراحت رافينا تتطلع الى وجه مارك وبعد بضع كلمات تبادلها معها

واستدار وسار الى حيث يقف أدونيس الذي نكس رأسه نحو الأرض ورأته يعتلي السرج وعندما جالت ببصرها في العربة رأت طفلة صغيرة ترفع يدها الى وجنتها وكأن عينيها تسألان رافينا سؤالا فأجابتها برقة :

« السنيور ... زوجي جرح وجهه في حريق ! » .

قالت الطفلة : « مسكين وجهه » .

وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحست بالدموع تكاد تظفر من عينيها وطفقت تقول لنفسها : « أوه ، مارك ، أريد أن أفهم السبب الذي يشدنا الواحد للآخر والدافع الذي يدفع الواحد الى الإبتعاد عن الآخر ! » .

أخذ الأتان يسعى ويرتقي الممرات في الارجاء دقات الاجراس التي نصبت في برج الكنيسة .

قالت أم الأطفال الأربعة « أوشكنا على الإقتراب من الكنيسه » .

ولاحت لهم جدران الكنيسة والبرج المخروطي الشكل والأبواب المفتوحة ورأت رافينا جوادا أسود اللون فوق التل وفارسه جالسا على ظهره في هدوء تام يقف وحيدا تكتنفه العزله وقد نأى بعيدا عن ضجيج الموكب ودقات الترحيب التي تعلنها الأجراس . تساءلت رافينا وهى تراقبه ك فيم يفكر هذا الفارس وهو جالس هناك / هل يفكر في اخر مرة شاهد فيها الإحتفال أم المرة الأولى التي حضر فيها الإحتفال بصحبة دوناتا لابد أنهما جلسا سويا فوق السرج وهما يرتقيان الطريق المؤدي الى الكنيسة ولابد أنه كان يهمس لها على أنغام دقات الأجراس : أحبك يا دوناتا ... سأحبك دائما . وفجأة أدار رأس جواده واقترب من العربة التي توقفت عند جانب الطريق وقال :

« مرحبا بك في كنيسة مادري روزاريا . سندخل فيما بعد لنشعل الشموع . أخبريني كيف حال كاحلك ؟ » .

إنزلق مارك من فوق الجواد وبادر الى مساعدتها على مغادرة العربة وسمعا سويا صوتا هدئا يقول : « هالو » .

التفت نحو صاحبة الصوت فوجد الطفلة الصغيرة تتعلق بالتنورة الحريريه التي ترتديها رافينا فابتسم لها وقال : « يجب أن أخذ السيدة معي ! » .

فاهتزت الإبتسامة على شفتي الطفلة وقالت : « أوه » .

مال بجسمه على الطفلة ولمس برقة خدها وقال :

« أنت ترين يا صغيرتي ليس معي أحد يشاركني الإحتفال بالعيد سأكون

وحيدا عندما يطلقون ألعابهم النارية » .

« ليس عندك أطفال يا سنيور ؟ » .

« لا .. ليس عندي أطفال ولكن السنيورة زوجتي تريد أن تشاركني مشاهدة الألعاب النارية هل تسمحين لي بذلك ؟ » . ابتسمت الطفلة الصغيرة وهزت رأسها بالإيجاب وتركت يدها التي كانت ممسكة بالتنورة الخضراء وحمل مارك رافينا وحينما تطلعت اليه وجدت الإبتسامة غامضة من وجهه وتحولت الى كآبه . لاشك أن الأمر لايمكن تجنبه . كان وجود طفلة ساحرة لابد أن تذكره بابنه الذي فقده وعندما لوح بيده عادت النظرة المظلمة الى عينيه وقال : « تعالي .. يجب أن نجد مكانا نمضي فيه الليلة ونقيم فيه الفراش حتى يدرك الاخرون أننا قد حجزنا مكاننا . هل تعرفين أنه من الضروري أن نمضي هذه الليلة في أحضان التل ؟ » . هزت رافينا رأسها بالإيجاب ورأت المصابيح بدأت ترسل أضواءها ودقات الأجراس راحت تدوي وتتردد أصداؤها فوق الجبال ، وتلمس كل قلب بلمسة ساحرة وبعد قليل سوف تشتعل الآف الشموع فتبدد الظلام الذي يسود مدخل الكنيسة ، ولابد من مرور موكب حاملي المشاعل الذي تتقدمه صورة ماردي روزاريا ، ويحملها أحدهم عاليا حتى يتاح للجميع رؤيتها ، وسوف تخترق الألعاب النارية كبد السماء وتقام الموائد وتعزف الموسيقى .

كانت التلال شاهقة الإرتفاع حتى لامست قممها النجوم التي كانت أضواؤها تتألق في عيني رافينا .

* * *

٩ ـ المكتوب ... هو المكتوب

تطايرت الألعاب النارية وانفجرت ثم أمطرت وابلا من الأضواء الملونة على الوجوه المشرئبة دهشة وكان الشواء محملا في أسياخ تتقلب فوق فحم متتأجج بالنار . وكان الأطفال يمرحون وهم ممسكون بالبالونات بينما أخذ بائع متجول يعرض على الجماهير الحلى الصغيرة وقام اخر يبيع الدمى المكسوة بالثياب في حين وقف غراب أسود على كتف غجري وراح يلتقط زوراق الكوتشينة من رف صغير وحينما قرأ الغجري المستقبل لإثنتين من الفتيات انفجرتا بالضحك .

وانهمكت رافينا في التطلع الى كل شيء حتى كادت تنسى زلم كاحلها . كانت ترتدي ثوبا تقليديا جعلها تشعر بأنها مثل هولاء الفتيات الضاحكات . وكانت ذراع الرجل السردي تحيط بوسطها فانتابها الاضطراب ازاء احساسها بالسعادة التي تثبتت بها كما يتشبث هؤلاء الزطفال ببالوناتهم الملونة التي قد تتعرض لشرارة فتنفجر .

سألها مارك : « هل تأخذين حلية صغيرة أو دمية أو ترغبين في معرفة المستقبل ، يمكنك أن تنالي الثلاثة اذا شئت » .

قالت مبتسمة : « الحلى الصغيرة لاتناسبني وعرفت مستقبلي ولكنني أظن أنني أريد دمية » .

أومأ مارك للبائع للمجيء لأن رافينا سوف تضطر الى أن تطلع وسط الجماهير حتى تصل اليه ، وعندما وصل اليهما البائع اختارت دمية ترتدي ثوبا قرمزي اللون ، الصدر مطرز والتنورة مكشكشة وشريط زينة رفيع الثنية .

قال مارك : « أعطنى الدمية ذات الرداء الوردي أيضا » .

والتقطها وناولها لرافينا ثم أردف يقول :

« هذه الدمية للطفلة الصغيرة ذات العينين الكبيرتين ، ربما نراها ثانية بمحض الصدفة » .

شعرت رافينا بالسعادة لأن تجد مارك يتذكر صديقتها الصغيرة التي كانت تجلس معها فوق العربة التي يجرها الأتان الهزيل . وأبدت إعجابها بالدمي ، بينما كان مارك يدفع ثمنها.

سألها مارك : « قلت أنك عرفت مستقبلك ، من أخبرك بحظك ؟ » .

قالت ك « إنها إمرأة تعيش في القرية تدعى فيرتيويللا » .

« تقولين فيرتيويللا ! آه تلك المرأة التي هجرها ابنها ماركو راعي الغنم ابن الثمانية عشر ربيعا الذى ضجر من حياته وانضم الى عصابة قطاع الطرق بغية رغد العيش » .

« ألاتستطيع أن تفعل شيئا لإنقاذه ؟ إن أمه إمرأة طيبة تعمل بجد وقلقة على إبنها » .

« يجب زن يترك ماركو العصابة قبل أن يمد المرء يده لمساعدته ويتكفل بأمره . إن المشكلة يا رافينا تكمن في أننا نجد الناس غير مستعدين دائما للعطاد ، عندما نطلب منهم بذل جهودهم . حاولت في اليوم الآخر أن أشرح السبب ... ولكن ... أنظري ... هاهي ذي الطفلة الصغيرة ذات الشريط المعقود في شعرها » .

كانت الطفلة تجلس مع عدد كبير من الأطفال أمام مسرح العرائس تحدق باهتمام فيما تؤديه الدمي .

تمتم مارك قائلا : « الأطفال يحبون مشاهدة مسرح العرائس » .

وأحست رافينا بالحزن يشوبه صوته وحدست زنه كان يقف هنا مع ابنه منذ سنتين ، وكان يضحك مثل هؤلاء الأطفال الضاحكين ،و عيناه تتألقان بمثل الصدق والسعادة اللتين تنبعثان من عيون الأطفال .

قال مارك : « اعطها الدمية » .

وزشاح بوجهه الذي أضاءته شعلة من عود الثقاب الذي أشعل سيكارته وأرخى الدخان ستارة فوق التغيير الذي بدا في عينيه وهما يبارحان سويا بعيدا عن صوت ضحكات الصغار .

أقبل الليل ... وبعد الإنتهاء من مشاهدة الزلعاب النارية جلس الناس جماعات والتفت كل جماعة حول النار التي أضرمت في الهواء الطلق

وراحوا يتناولون شرائح اللحم المشوي وقطع الخبز وأديرت أكواب الشراب بينما راح المنشدون ينشدون أغاني سردينيا القديمة على الات الماندولين .

كان مذاق الطعام طيبا وكان كتف الرجل مكانا مريحا كي تريح رأسها بينما تلاعبت ألسنة اللهب فتلقي ظلالها على الوجوه التي بدت عليها القوة والجمال والوقار . عكس شعر رافينا تألق النار وتلألأت عيناها بخضرتهما وهي تستمتع الى أغنسة سردينيا تروي قصة حب راعي غنم وسرها أن تدرك معني الكلمات التي تتردد باللهجة المحلية ، وكانت تقول : الحياة تجعلني أصرخ .. وأضحك .. وأتنهد . أحبها كلها .. أما أنت فأحبك أكثر من أي شيء آخر !

ودفعها شيء مبهم الى أ تتطلع الى مارك . بينما كانت لالموسيقى والكلمات تخف تدريجيا ، وظنت أنها ترى ومضة حنان في عينيه وسرعان ما أدركت السبب اذ دخل فجأة قوام نحيل الى دائرة ضوء القمر لها شعر أسود حافية القدمين تمسك بيدها دفا صغيرا . إنها فتاة المطعم التي راحت تبتسم وهي تدور بين الناس ثم خطت خطوات سريعة حتى تطايرت تنورتها الحمراء في الهواء وتوقفت أمام مارك وزوجته وشوهدت ابتسامة على شفتيها يشوبها اليأس الممض ثم قالت : « بادرون ؟ ! » .

كانت كلماتها تحمل نبرة التوسل ، وتشبثت نظراته بعينيها ثم بدأت من جديد ترقص رقصة الدف . توترت رافينا وهي جالسة الى جوار مارك خلال الرقصة وودت أن تولي الفرار ، ولكن كيف لها السبيل وكاحلها يعوقها عن السير وسوف تبدو كبرياؤها مهينة اذا هي فرت من فتاة ترقص لزوجها وحده .

رأت رافينا أن الرقصة لن تنتهي وأصبح فوق احتمالها أن تجلس هكذا الى جوار مارك وشعرها يحك ذقنه ودفء كتفه ينفذ خلال بلوزتها الحريرية . وكانت رعشة الدفء وظلال الفتاة تطوف بكل مكان في دائرة ضوء النار ، وأخيرا غربت الفتاة ولكن ظلها بقي في المكان فأشاع سحابة من الكآبة على رافينا ولم تستطع الفكاك من أسرها .

بدأ الناس يتثاءبون وأخذوا يسعون للنوم اما في خيامهم او في عرباتهم وتبادلوا القبلات وهم يرددون التهنئة بالعيد السعيد . شعرت رافينا بيدي مارك فوق كتفها ونظرت اليه بوحشية عندما جذبها الى صدره ولكنها سحبت نفسها دون أن تبادله قبلته .

قال بنبرة باردة : « إنها عادة أن يتبادل الناس القبلات في العيد ، ألم

يدخل المهرجان السعادة الى قلبك ؟ » .

قالت : « أنا .. أنا أمضيت وقتا طيبا » .

ابتسم ساخرا وقال : « وقت طيب ؟ متى تتعلمين أن تكوني منا ـ وتشعرين بالعاطفة نحو شيء ما ؟ تبدو عليك القسوة حتى يبلغ بك الأمر الى أن تنتزعي الأقراط من أذنيك . هل تدعين فتاة أخرى تسرق منك حبيبك ؟ »

قالت ببرود : « أنا لاأضع أقراطا في أذني ، ومرحبا بالفتاة التي تستطيع أن تسرق » .

وحاولت أن تفلت منه ولكن ألم كاحلها أفسد عليها المحاولة وكادت أن تتهاوى ولم تجد أمامها إلا أن تستعين بمساعدة مارك في التوجه الى خيمتهما كانت ليلة مخملية يتألق فيها ضوء النجوم وكانت رافينا اعتادت في رحلاتها المدرسية أن تنام في المخيمات التي تقام في الهواء الطلق ،أما الليلة فإن الأمر مختلف تماما ، إنها تسمع صوت الريح تشدو أناشيدها عبر الأشجار التي تكسو الجبال ، وعندما تخلد الى النوم فإنها سوف تشارك مارك التدفئة ببطانية من جلد الغنم لتواجه برودة هواء الجبل .

قال مارك : « الرباط يجب أن يتخفف قليلا حول كاحلك . اجلسي على هذه الشجرة المتهاوية وسأفعل ذلك بنفسي » .

وكان مستحيلا على رافينا مناقشة مارك ، وامتثلت لطلبه وشعرت بقوة لمسة أصابعه وهو يحل الرباط الحريري ويعيد تثبيته خفيفا حول كاحلها حتى لاتشعر بالخدر أثناء نومها .

« هل الرباط مريح ؟ » .

« أجل شكرا لك » .

وقف ثم استدار بظهره الى شجرة وقال : « قلت شيئا قبل إصابة كاحلك ولكنني نسيته حتى الآن . لقد أشرت الى فتاة ... » .

قالت : « مارك ليس الوقت أو المكان مناسبين لمناقشة الموضوع ، أنا متعبة جدا ، يوجد هناك أناس بالقرب منا » .

« بالطبع ولكن أجيبي فقط على سؤالي يا رافينا . هل تظنين إنني على علاقة بامرأة أخرى ؟ » .

وقع السؤال عليها وقعا مفاجئا قاسيا فقالت :

« اذا كنت تبغي امرأة أخرى فمن الخير أن تدعني أرحل » .

ووقفت على قدميها لمواجهته وأردفت تقول :

« لاتحتفظ بي معك يا مارك . أنت تعلم بانتفاء السعادة بيننا وحياتنا تسير هكذا » .

واستدارت لتبتعد عنه وترقد فوق السجادة وودت لو تخلد للنوم قبل أن يلحق بها ، ولكنها سمعت وطء أقدامه تقترب منها ، وتوتر جسمها عندما نام الى جوارها وإنتظرت الى إن يلف ذراعه حولها كعادته إلا أنه رقد بعيدا عنها .

استيقظا مبكرين في الصباح وطويا فراشهما وغادرا المكان ميممين شطر البيت وبدت لهما الجبال خالية من الناس ولم يبق أحد سواهما وخيل لهما أن هذا الحدث لن يتكرر ثانية ، وحدثت نفسها قائلة : « إنني لن أشعر بأنني أنبض بالحياة أو إنني امرأة بصحبة رجل كما أشعر الآن. مارك أوه مارم لو زستطيع أن أعرف حقيقة قلبك .. كما أعرف شكل وجهك ».

وصلا البيت قبل الظهر وكانت رافينا سعيدة أن تدخل غرفتها وتغسل جسمها وترتدي ثيابا خفيفة فضفاضة ، وتناولت الطعام وحدها وأمضت فترة بعذ الظهر وحيدة . وشعرت أن مارك نأى بعيدا عنهالأن لديه شيئا على جانب من الأهمية يخص مستقبلها يريد أن يفضي به اليها . واستبدلت ثوبا حريريا بثوبها وهبطت درجات السلم لتنتظر مارك في غرفة الإستقبال حيث كانت تلتمس الهدوء لقلبها .. وعقلها ! . أخيرا جاد مارك وبدا لها رجلا مختلفا وهو في بدلته الرمادية . كان صارما طويلا متحفظا وليس فى صورة السردى الذي حملها فوق جواده لمشاهدة الاحتفال بالعيد . واستقرت عيناه على قدميها اللتين استراحتا على مقعد مستدير صغير . وقال :

« كيف حال كاحلك ؟ » .

« يؤلمني . ولكنني سأعيش . ألا تجلس يا مارك . أنت تثيرني بقوامك الفارع وهو يطل علي » .

غاص مارك في أحد المقاعد الوثيرة وراح يبحث عن صندوق لفائفه وسألها : « هل يمكنني التدخين ؟ » .

قالت : « طبعا يمكنك التدخين ، أنت تعرف أنني أحب رائحة الدخان »

قال : « رافينا » .

ردد إسمها وشعرت إن ما سيقوله مارك سوف يحدد مصير مستقبلها وحتى هذه اللحظة كان قلبه لايلين أمام أي شيء ، كان صارما عندما قال لها

ستتزوجيني وستتعلمين كيف تعيشين مع وجهي هذا .

استقرت عيناها على وجهه وكان غريبا أن تشعر بأن ندوبه لم تعد تثيرها كثيرالإنه لم يتعود على أن يطأطيء رأسه ليخفيها عن الناس وأحست أنها توارت عن بصرها وأصبح ما يعنيها منه قوته وسحر عينيه .

سألته : « ما الأمر يا مارك ؟ » .

وتقلصت يداها وفكرت في الكلمات التي تفوهت بها وهما فوف الجبل حينما قالت له بأن السعادة الحقيقية لن تعرف مكانها بينهما !

قال بصوت حاسم المخارج قاطع النبرات :

« سأغيب عن البيت إسبوعا ، لن أخبرك بالسبب أو المكان الذي سأتوجه اليه ، ولكن عندما أعود ستكون لدينا أمور يجب مناقشتها وحقائق يجب أن نواجهها » .

برزت عيناها وسألته : « ألا نستطيع مناقشتها الآن . هل يجب علي الإنتظار أسبوعا آخر ؟ » .

نهض مارك واقفا على قدميه وقال : « أجل .. لقد طلبت منك الشيء الكثير يا رافينا والآن أطلب منك الصبر » .

« تطلب مني الصبر يا مارك ؟ أن أمضي إسبوعا كله إنتظار وتساؤل ، بينما تذهب أنت أينما تشاء ، هل هي رحلة عمل أيضا ؟ » .

قال مترددا : « ليس تماما » .

« هل لها علاقة بتلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي رقصت لك ليلة أمس ؟ » .

توهجت عيناه لتلتقيا بعينيها وقال : « رقصت لي ؟ هل تظنين ؟ » .

شعرت رافينا بالبرود يكتنفها واستجمعت شجاعتها وقالت له :

« إنني أعرف إنك تورطت في علاقتك مع هذه الفتاة ومن أجلها تتغيب كثيرا عن البيت . اسمعني يا مارك ، ليس من المحتم أن تنتظر أسبوعا آخر نناقش أمر مستقبلنا يمكننا مناقشته الآن . اذا أصررت على الذهاب فلا تتوقع أن تجدني هنا عندما تعود » .

بدا التجهم على وجهه وتقدم نحوها وقال : « بل يجب أن تكوني هنا . إنني أصر على أن تعديني بالبقاء حتى أعود » .

وارتجف صوتها وسألته : « لماذا تصر على وعدي ؟ دوناجوكاستا تستطيع

أت تحتجزني في غرفتي » .

برزت الندوب جلية في وجهه وهو يقول : س لاتكوني طفلة . كل ما أطلبه هو ثقتك لمدة أسبوع واحد فقط . هل يمكنك أت تمنحيني إياها على الأقل ؟ » .

قالت مترددة : « على الأقل ؟ ظننت أنني أعطيتك كل شيء طلبته مني ... إنني أسفة .. كل شيء تراه يعد قليلا في نظرك في الوقت الذي يعني عندي المزيد من الألم .إنني أعاني من الشقاد وأنا بعيدة عن وطني وتأتي بي الى هنا الى بيت الأشباح والذكريت . هل تظن إنني أمضيت يوما سعيدا هنا ؟ هل تظن إننى أكترث كثيرا في أن تفضي الي الآن أو بعد أسبوع بأن لعبة التأثر انتهت ؟ » .

نهضت واقفة وراحت تجيل طرفها فيه فلم تأبه لقوته اذا ما قورنت بنحولة اقدامها فقال لها : « أجل إن لعبة التأثر انتهت . هناك بعض الكلمات لم تقل بعد ولكن بحق الشيطان لن أتفوه بها الآن . لاأظن إنني لاأستطيع أن أقولها » .وتنحى جانبا فبدت صورته الجانبية مطبوعة على الضوء الأخضر باردة متكبرة ثم قال : « كم أود أن أجعلك تفهمين بأن هذه الحالة هامة وغير هامة في الوقت نفسه وعلي أن أذهب لأنني وعدت بالذهاب ألا يمكنك أن تعديني؟ »

قالت ببرود : « لا ، لا ، يا مارك » .

هز كتفيه العريضتين باستخفاف وقال : « المكتوب هو المكتوب ! » .

حملقت رافينا فيه وهو يغادر غرفة الجلوس وقد تجمدت كلماته « المكتوب .. هو المكتوب » على شفتيها وأحست بأن الرباط الضاغط الملفوف حول كاحلها قيودا تغل حركتها ، إن المكتوب هو المكتوب ولن نستطيع أن نفعل شيئا لتغيير مجرى الأحداث . ووقفت مكبلة بالكبرياء وتركته يذهب الى الفتاة الآخرى .

لانونا لابد أن تكون راودها الشك في حدوث صدع في علاقة حفيدها بزوجته ، ولكنها لم تشر الى رحيله المفاجيء من المنزل عندما التقت بها في صالونها هذا المساء ، وانما تحدثت عن تلك الأيام التي أمضتها في الجزيرة ، وتفحصت رافينا ببصرها مليا وهي جالسة على السجادة بجوار المدفأة وقالت لها : « يمكنك أن تعتبري نفسك امرزة يوم تفهمين السردي . أنت تجلسين تماما كما جلست في تلك الليلة الأولى التي أتيت فيها ، كنت طفلة

ورحت أتطلع الى شعرك في ضوء النار وقلت لنفسى : أه .. هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراوين ستتسبب في إثارة متاعب كثيرة » .

قالت رافينا : « كنت تريدين فتاة مطيعة سهلة الإنقياد ! »

قالت الجدة : « أردت السعادة فقط لماركوس بعد طول الحزن وظننت أن الحزن سوف يقضي عليه أو سيقوده الى الجنون أخبريني يا رافينا متي تفضين له بوجود جنين في أحشائك ؟ » نظرت رافينا اليها وودت أن تنكر ما حدسته لانونا ولكنها اصطدمت بالأمنية الدفينة التي تتراقص في عينيها فوجدت أنه من الحماقة الإنكار فقد رزت لانونا الكثير من هذه الدنيا وتشعر بما يتمناه مارك . تركت الدموع فجأة في عيني رافينا وقالت :

« وماذا يهم في الأمر؟ كنت محقة منذ البداية يا لانونا قلت ان الانسان لابد أن يتزوج من قريته وأنا راحلة » .

قالت لانونا مصدومة : « لاتستطيعين هناك طفل ، ربما يكون ابنا لماركوس » .

« لايهمني .. انني ماجئت الى هنا لأقدم لمارك ما يريد مني دون أي إعتبار لمشاعري ،إن أحاسيسي لم تعد تعنيني فهو واقع في غرام فتاة أخرى » .

اقتربت لانونا من رافينا ولمست دموعها التي انحدرت على وجنتيها وكأنها اعتادت أن تؤمن بما تشعر به . قالت :

« ماهذا الذي تقولينه ؟ كيف تكون فتاة أخرى ؟ ماركوس تزوجك » .

أطلقت رافينا ضحكة مريرة وقالت :

« ولكنه يأسف الآن على هذا الزواج . زواجنا انتهى يا لانونا وأنا راحلة »

قالت الجدة : « هنا بيتك ، كل أطفال ديكورزيو ولدوا في منزل السرد وهنا سيولد طفلك » .

قالت رافينا : « سيولد طفلي في رافنهول » .

ووقفت على قدميها واستطردت تقول : « ألاتعلمين أن مارك يمضي هذه الليلة بصحبة امرأة أخرى ؟ إنها من بنات الجزيرة ،لها شعر أسود مثل دوناتا ربما يجد لديها كل ما فقده » .

« إنه طفل ... كوني عاقلة » .

« كنت عاقلة أكثر من أي إنسان آخر ولكنني لاأستطيع أن أتمسك بالتعقل تجاه علاقة مارك بالفتاة » .

وبدت لانونا فجأة امرأة عجوزا طاعنة ف« السن بالغة الأعياء وقالت :

« لاتوجد أية علاقة على الإطلاق . زوجك يا طفلتي ذهب للبحث عن ماركوكريستي . وهذا معناه الذهاب الى الجبل حيث يختفي قطاع الطرق . لم يرغب مارك في أن تعرفي بالأمر وإنما أفضى به الي وطلب مني أن أحتفظ بالسر . إنهم رجال خارجون عن القانون وقد توسلت له الفتاة أن يبحث لها عن فتاها . وقال إنه سيسرك اذا استطاع أن يقنع إبن فيرتيويللا بالعودة الى أمه ويسلك حياة شريفة » . شيئا .. فشيئا .. أخذت الكلمات تخترق قلب رافينا وسألت : « لماذا لم يخبرني ؟ لماذا احتفظ بهذا السر ؟ » .

قالت الجدة : « ربما ظن أنك ستقلقين عليه ، أو ربما خشي ألا تسمحي له بالذهاب » .

وأخذت يدها تهتز وأومأت لرافينا قائلة : « ألا تسكبين لي كأسا من الشراب يا طفلتي ؟ أشعر أنني في حاجة اليه . ومن طلعة وجهك أرى أنه من المستحسن أن تشاركيني باحتساء كأس ! سوف يساعدك على النوم » .

وبعد مضي يومين سمعت طرقة على باب غرفة نومها فتحته ورأت رينزيو أمامها يحمل في يده رسالة لها وصلت لتوها وشاهدت طوابع انكليزية على ركن الظرف وبدا عليه خط رودري برينين فى غير اتساق .

سألها رينزيو وعلى وجهه علامات قلق واضح :

« هل تريد سيدتي فنجانا من القهوة ؟ »

« أجل أحضر لي في غرفة الجلوس ، سأقرأ الرسالة هناك » .

وقفت في غرفة الجلوس فترة طويلة تحاول فض الرسالة ولكن أصابعها لم تطاوعها على فتحها وكانت تخشى أن تحمل في طياتها أنباء سيئة ولكنها تحاملت أخيرا على نفسها وفتحت الرسالة بأصابع باردة متوترة .كتب رودري لها يخبرها بعودته الى استراليا وأقنع أباه بالذهاب معه وأنهما سيستقلان باخرة وأخبره الطبيب بأن الرحلة البحرية سوف تفيد جاردي وحيث أن رافينا تزوجت واستقر بها المقام في سردينيا فلايوجد أي مبرر للإبقاء على رافنهول فأعلنوا عن بيعه .جلست رافينا على مقعد لأنها شعرت بوهن يسري في أوصالها . انها لاتصدق إن جاردي يبيع رافنهول وسوف يذهب مع رودري الى نيوسوثويلز إنه مكان بعيد يصعب عليها بلوغه وشعرت أن أقرب الناس هجروها .

وتذكرت طفلها ! قالت منذ ليال قليلة مضت أنه سيولد في رافنهول لكن

البيت الذي أمضت فيه طفولتها سيصبح ملكا لإنسان غريب عنها ، وأحست برغبة في البكاء فلم يعد هناك أي شيء يمكن أن تتعلق به لاجاردي ولابيت ولاواحد يمكن أن تركن اليه ، وعندئذ سمعت أقدام تقترب منها وتقول :

« إن فنجانا من القهوة أفضل من لاشيء » .

وتطلعت ببصرها لتأخذ الفنجان فوجدت انسانا طويلا يقف بالباب وقد بدا عليه الاجهاد وفي نظراته علامات الفضول فصرخت قائلة :

« مارك ! »

فقال مبتسما : « ظننت أنك رحلت » .

قالت : « لانونا أخبرتني بسبب ذهابك الى الجبال لتقابل قطاع الطرق » عقد مابين حاجبيه وكسا التراب حذاءه ورأت مزقا في قميصه .

قال : « لاتقولي أنك كنت قلقة علي ؟ »

سألته وهي تمزق رسالة رودري قطعا صغيرة :

« هل وجدت ابن فيرتيويللا ؟ هل تحدثت معه ؟ » .

« أجل كان في حاجة الى من يقول له [إنك فتى أحمق] وإن أمه وفتاته في انتظار عودته الى البيت ليمنحاه حبهما هذا الحب شيء لايستطيع أن يطلبه أو يستدينه أو يسرقه . إنني أحسده » .

ورفعت رافينا عينيها عن الرسالة الممزقة وتطلعت الى مارك وقالت :

« الا من الفتاة التي تحبه ؟ »

« أجل بالرغم من الأذى الذي أصابها منه فإنها تحبه .أنت تمزقين هذه الرسالة يا رافينا » .

نظرت الى قطع الرسالة في دهشة وقالت : « أنها رسالة من رودري » .

انتصب مارك واقفا وقال : « رودري ؟ وتمزقين رسالته ؟ لماذا ؟ » .

« أنا .. أنا لم ألحظ أبدا إنه سيذهب الى استراليا مرة ثانية وبصحبته جاردي لقد باعوا رافنهول » .

« اذن لن يكون أمامك أي مكان تهربين اليه ؟ » .

« أوه مارك » .

ووضعت وجهها بين يديها لأنه لايشعر بما تشعر وتمنت ولكن تمنت ماذا ؟ وسرت رعشة في أوصالها عندما خطا نحوها ولمست يداه كتفيها .

سألها : « هل تريدين الذهاب الى استراليا ؟ »

شعرت بقربه الى جوارها وأدركت تماما ماذا تريد .هزت أنفاسه شعرها .

قال : « رافينا هل تريدين أن أحررك مني ؟ » .

تطلعت اليه وأدركت أنها لن تتجرر منه ولن تهرب من الحب اذا نبض القلب به . وفي هذه اللحظة شعرت أنها لاتستطيع أن تختار حريتها كما أنها لم تعد تقوى على العيش معه بدون حبه .

سألته : «هل ستدعني أرحل ؟ » .

« لن أدفعك الى البقاد . هذا اذا لم تكوني راغبة في ذلك » .

ولأول مرة رفع مارك يده ليغطي وجنته المشوهة وقد بدت سحب الألم في عينيه واستطرد يقول :

« كيف لي أن أسألك أن تحبينني كيف لي أن أطمع في قدرتك على الإحتمال ؟ إنني لاأملك حديقة ورود أقدمها لك . وكل ما أملكه منزل أشباح وذكريات » .

واستعد لمغادر الغرفة عندما استوعبت فجأة كل ما قاله لها فقفزت واقفة على قدميها وصرخت تنادي إسمه :

« مارك ... حبيبي ! » .

فوقف ساكنا تماما رأسه شامخ بالكبرياء ولم يستطع أن يلتفت ليتطلع اليها فأسرعت وشخصت ببصرها اليه وقالت برقة :

« إنني لاأكره قبلاتك أو ندوبك » .

واشرأبت بجسمها وجذبت رأسه اليها وكانت شفتاها ناعمتين وهي تضع قبلة على وجنتيه التي تكسوها الندوب وأردفت تقول :

« إن الحب زعمق من الندوب الغائرة يا مارك ! » .

سألها والشك في نظراته : « كم يطول هذا الحب ؟ » .

أشارت بأصبعها الى المزق في قميصه وقالت :

« لاأعلم وإنما كنت أشعر بأنني أحبك دائما » .

« كنت تكنين الكراهية لي » .

أمسك بيدها وشعرت بنبض قلبه وأردف يقول :

« أنت تزوجتني وأنت تعرفين بأنني لن أقوى على الحاق الأذى بصيقك الغالي رودري إنك توجهت لمقابلته يوم زواجنا » .

قاطعته .. قائلة : « جاردي كان مريضا وكنت خائفة من نتيجة ما

سيحدث لو أن رودري أفضى له بحادث السيارة . كان رودري يريد أن يعترف لأبيه واستغرق الأمر مني فترة لكي يعدل عن اصراره على الاقرار بجريمته » .

« كان اعترفه سيحررك من أي إلتزام نحوي ألم تراودك الرغبة في أن تكوني حرة ؟ » .

جذبها وهو يتحدث اليها فوضعت ذراعيها حول عنقه ونظرت الى عينيه وفي خجل ضغطت وجهها على صدره وقالت :

« لم أكن أعرف حقا ماذا أريد حينئذ ولكنني الآن أعرف ماذا أريد . إنني أريد أن أسعدك يا مارك سعادة تفوق ما قدمته لك دوناتا » .

التفت يداه حول وسطها فندت زفرة من فمه وقال :

« تزوجت دوناتا لأرضي أسرتي ولكنني تزوجتك لأرضي نفسي . كنت على استعداد لأن أزيح من الوجود أي إنسان يعترض طريقي . كنت أطالبك بدفع الثمن وفاد للطريقة التي فقدت بها إبني دريستي ، أما الآن فلا أكاد أتصور أنك تقدمين لي حبك » .

وقفت رافينا على أطراف أصابع قدميها وهمست في أذنه بسر معين ، ومضى وقت طويل قبل أن يعود كل واحد منهما الى الحديث .

وسرعان ما غابت الظلال من منزل السرو وترددت ضحكات طفل في زرجائه وراحت رافينا ترقب بحب زوجها وهو يرفع الصبى الى كتفه وينظر اليها بعينين تتألقان حبا .

ولسان حالهما يردد « المكتوب ... هو المكتوب ! » .

* * *

إرشادات

(١) الأسم الذي يطلق على الكولونيل كاروت برينين خلال الرواية .

(٢) السلتى : نسبة لأحد أفراد عرق هندى قطن فيما مضى أجزاء واسعة من أوروبا الغربية .

(٣) ساردونيك معناها متهكم .. وأرادت الكاتبة أن تجد علاقة بينها وبين كلمة سارد أي من سكان سردينيا .